معالم النقد الأدبي ومبادئه عند محمد البشير الإبراهيمي

Literary criticism and its principles of M.A. Al-ibrahimi

د. رباح بن خوية¹ Dr. Rabah Benkhrouya

ملخص

سنتطرق في هذا البحث إلى بعض الإسهامات النقدية لمحمد البشير الإبراهيمي على الصعيد الأدبي والنقدي لتطوير معالم نقد أدبي إسلامي لمقاربة النصوص الأدبية والشعرية. وسنحلل بعض آرائه وتصوّراته وأفكاره، موضحين معالم قراءاته النقدية ومبادئها، تأسيساً لأطر نظريته في النقد والأدب، كما هي متجلية في ممارساته وإنجازاته المختلفة، وإبرازاً لأثر التّصوّر الإسلامي في كتاباته الأدبية والنقدية لتأسيس نقد أدبي إسلامي متميز يُعنى بالمضمون عنايته بالشكل. وهذا التّصوّر لوظيفة النقد والأدب هو المدخل المعرفي الطبيعي الملائم لقراءة كتابات الإبراهيمي الأدبية والنقدية على السواء.

كلمات مفتاحية: النقد الأدبي، النقد الإسلامي، النقد الأدبي الإسلامي، التّصور الإسلامي للأدب، نصوص أدبية، محمد البشير الإبراهيمي، أحمد شوقي، معايير النقد الأدبي، صفات الأديب، صفات الناقد الأدبي، القراءة النقدية للنصوص.

(1) مقدّمة

عرّف القراء والمهتمون بالشأن الأدبي في العالم العربي والإسلامي الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1889-1965) -رحمه الله- كعالم مصلح و مربٍ وداعية من أبرز رجالات جمعية العلماء، ورجل وطني من الطراز الأول، متمسكاً بكثير من الأوصاف والنّعوت، التي تتجلى من خلال دراسة أعماله وآثاره وتحدّد جوانب كثيرة مهمّة في شخصيته العبقرية الفذة. ومع تلك العناية المؤكّدة به، فقد قلّ ونُدِر، في أحاديث القراء كما في كتاباتهم، أن يتعاملوا مع الإبراهيمي ناقدًا وأديبًا ولغويًا، ويتأملوا في آثاره بوصفه صاحب نظرات نافذة، وممارسات قيّمة في الأدب، شعراً ونثراً ونقداً وتاريخاً، تقييماً وتقويماً، وفي اللغة تحقيقاً وتأصيلاً.

والحقيقة أنّ ذلك التأمّل العلمي المأمول في آثار الإبراهيمي الأدبية يستغرق وقتاً ويستأهل جهداً وإفياً جديرين بعبقرية موسوعية، كعبقرية الإبراهيمي، كفاء ما بدّل في سبيل وطنه وأعطى في سبيل أمّته، وهو ما لا تكفيه بضع ورقات تناقش في مؤتمر، أو حصّة محاضر أو فصل مُوجَز يُدرج في كتاب. وهذا

¹ د. رباح بن خوية، جامعة محمد البشير الإبراهيمي، برج بوعريّيج، الجزائر، بريد إلكتروني:

ra.benkhrouya@yahoo.com

لا يحول دون تناول علمي لإنجازاته النقدية وملاحظة لأهم معالم نقده الأدبي من المنظور الإسلامي. ومن المؤكد أن المجال الأدبي النقدي هو إحدى المجالات المهمة التي لم يغفل عنها الإبراهيمي بحكم تكوينه الثقافي والعلمي، واهتماماته الدعوية، فقد ترك بصمات متميزة قيمة - قلت أم كثرت فذلك شأن آخر - وقد نلّمس تلك الإسهامات فيما أشار إليه الباحث عبد الملك بومنجل حين تحدث عن المجالات التي إفتحم غمارها الإبراهيمي، ومنها المجال الأدبي النقدي، حيث يقول: "يتميز الإبراهيمي بأنه الأديب الرسالي الموغل في الالتزام بقضايا أمته. ولعل هذا السبب الرئيسي الذي جعله لا يهتم بقضايا الأدب والنقد، إذ لم نجد في آثاره من الكتابات الأدبية إلا خمساً، سجل فيها آراءه وملاحظاته حول شاعرين إسلاميين معاصرين له، حبيبين إلى قلبه، وهما شاعر الشمال الإفريقي محمد العيد آل خليفة، كما يلقبه هو، والشاعر السوري الوزير عمر بهاء الدين الأميري." (1)

والواقع أن آراء الإبراهيمي في الأدب والنقد تتجاوز الموضوعين اللذين أشار إليهما الباحث، كما سنرى ذلك لاحقاً. ودون أن تغيب عنا حقيقة أن الإبراهيمي لم يكن "أديبا متفرغاً لشؤون الأدب، متخصصاً في الكتابة والتأليف، كما هو الحال عند أغلب أدباء العصر الحديث، إنما كان عالماً مصلحاً، وداعية مجتهداً، يستخدم الأدب وسيلة لتبليغ دعوته، والوصول إلى مقصده، وأحياناً يستخدم براعته اللغوية أداة للتعبير الجميل دون أدنى تكلف أو إجهاد." (2)

ولم يقتصر اهتمام الإبراهيمي، من حيث تكوينه، على مجال دون غيره من المجالات العلمية والفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية والتربوية، فقد سعى أن يلم بثقافة عصره، وأن يحيط علماً بالتيارات الدائرة فيه، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وأن يكرّس ذلك في خدمة وطنه وعقيدته، في خدمة الجزائر الوطن المستلب المغتصب والإسلام الدين المستهدف المحارب. ولعلّ المسؤولية الجليلة التي ألقيت على عاتقه والمهمة العظيمة التي أنيطت به إثر وفاة رفيق دربه ابن باديس -رحمه الله- والمنعرج التاريخي الحاسم الذي وجد فيه. لعلّ كلّ ذلك كان حافزاً له وملهماً على التكوين الموسوعي والإمام بثقافة العصر المستجدة على قدر إمامه بثقافة التراث المتجددة، ممّا أتاح له فرصة بناء رصيد معرفي شاسع، وهو ما يتجلى في آثاره المتعددة وفي أقوال من عرفه ولقيه.

وقد تعرّضت القراءة لإسهامات الإبراهيمي على الصعيد الأدبي والنقدي وآرائه وتصوراته فيهما، موضعاً معالم قراءاته النقدية ومبيناً ملامح نظراته الأدبية، كما هي متجلية في ممارساته وإنجازاته المختلفة، وإذ أتناول ذلك فقد حرصت على تجلية أثر التصور الإسلامي الأصيل في كتابات الإبراهيمي الأدبية. فهذا التصور هو، في نظري، المدخل الطبيعي الملائم لمقاربة كتابات الإبراهيمي الأدبية والنقدية. ومن المعلوم الذي لا يقبل الشك أن الإبراهيمي كان عالماً ربّانياً حيي بدينه ولدينه، في كلّ صغيرة وكبيرة، في كل حقيرة وجليلة، عميق الإيمان بأن الإسلام قانون شامل لأنواع التدابير المحيطة بمصالح البشر من حرب وسلم، وخوف وأمن، وسياسة وإدارة، وقضاء في الأموال والدّماء والجنايات،

وفي بناء الأسرة⁽³⁾. وراسخ اليقين بأنّ "أصلح نظام لقيادة العالم الإنساني هو الإسلام"⁽⁴⁾. وأنّ دواء العالم ممّا هو فيه هو الإسلام. ومقتنعا أنّه دين وسياسة.⁽⁵⁾

وفي ضوء ما سبق، فسأقف في هذه القراءة على المحورين التاليين:

الأول: قراءاتُ الإبراهيميِّ النّقدية في الشعر والشّعراء، موضحاً آراءه واتّجاهه في القراءة، ومستجلباً أثر التّصوّر الإسلامي في تلك القراءة، ومبيناً سعة ثقافة وعمق معرفة الإبراهيميِّ الأدبية النّقدية من خلال قراءاته - هو - وهي القراءات التي تناولت شعراء كالشاعر المصري أحمد شوقي (1868م-1932م)⁶ والشاعر السوري عمر بهاء الدين الأميري (1916م-1992م) والشاعر الجزائري محمد العيد آل خليفة (1904م-1979م).

الثاني: النّصوصُ المؤطّرة لرؤية الإبراهيميِّ للأدب ووظيفته، موضحاً آراءه ومستبيناً أثر التّصوّر الإسلامي في نظراته الأدبية.

2 قراءاتُ الإبراهيميِّ النّقدية في الشعر والشّعراء

يتجسّد الوعي النقدي لدى الإبراهيمي عبر النماذج المقترحة التالية:

2.1 قراءته للشاعر المصري أحمد شوقي (أمير الشعراء)

أول ما يتصدّر به هذا المحور هو قراءة الإبراهيمي لشعر الشاعر المصري أحمد شوقي، الذي خصّه بنصيب وافر من الاهتمام مقارنةً مع غيره، وذلك للمنزلة الأدبية التي أحرزها شوقي بشعره في العالم العربي، كشاعر إحيائي، وقد ترعّع على عرش إمارة الشعر، ومنح لقب أمير الشعراء سنة 1927م. ولاهتمام الإبراهيمي به مبرراته الفنية والموضوعية وقد أشار إليها، كوفرة (الإسلامية) في شعر شوقي وبراعته في التعبير الفني الجمالي والتّصوير الشعري. ومعنى ذلك لأصالة شعر شوقي وسيرويته ضمن الأساليب الفنية المتعارف عليها في التّراث الشعري العربي، ولصدوره عن رؤية إسلامية ملتزمة لا تخطئها القراءة المتأنية في سائر شعره وشعره المجدّد. وستكون متابعتنا لقراءة الإبراهيمي وفق معايير مستخلصة من القراءة ذاتها، وهي:

2.1.1 معيار ضرورة تزاوج الفكر والفن في الأدب

يمكن القول إنّ الإبراهيمي، في قراءته لشوقي، كان متأثراً بنزعة المحافظة، وآراؤه وأحكامه النّقدية، بهذا الصّدّد، ذات علاقة بالمعرفة الأدبية المرتبطة بالثقافة التّراثية التي كرستها (مدرسة الإحياء)، إبان النّهضة الأدبية من تقاليد شعريّة، وما أرسته من قواعد فنية. وينطلق الإبراهيمي من أنّ تكوين كلّ من النّاقّد والأديب (الشاعر) يتكئ إلى ثقافة ينبغي أن تبنى على أساس الحفظ المدرك للنماذج الجيدة من النّصوص الشعريّة، في مرحلة أولى، ويشكّل هذا الحفظ المدرك أسلوباً من أساليب التّعليم ومنهجاً من

مناهج التأهيل وطريقاً من طرائق التربية الدوقية (الفنية) واللغوية لكل من الناقد والأديب (الشاعر) على مرتبة سواء. إن هذه الملاحظة تعدّ إطاراً لمبادئ ومعايير العملية النقدية التي هي أساس مُنطلق الإبراهيمي في التقييم والتّقويم النّقديين للعمل الأدبيّ، وهو ما يتبنّاه كأداة في دراسته لشعر شوقي وغير شوقي. وذلك الإطار النظريّ والإجرائيّ لمجموعة المبادئ القرآنية التي يؤسّس عليها الإبراهيمي دعائم ممارساته النقدية يتركز بدوره على أساسين مهمّين واضحين:

أ- يُعنى الأساس الأول بالمحتوى أو المضمون الذي يقدّمه الأدب - والشعر بخاصة في هذا السياق- والمراد بذلك أنّ الموضوع في النصّ الأدبيّ يمكن أن يقدّم من وجهات نظر مختلفة ومناظير متباينة، فالمرأة يمكن أن تكون موضوعاً لنص أدبيّ، وطريقة تقديم المرأة كموضوع ومعالجته فكرياً وتحميله الدلالات والمعاني. كلّ ذلك مضمون، وهو يختلف من أديب إلى آخر، وبحسب الانتماءات الفكرية. وبناءً عليه، يمثّل التّصوّر الإسلاميّ وجهة من تلك الوجهات ومنظوراً من تلك المناظير، وهو ما اعتمده الإبراهيمي في قراءة شعر شوقي.

إنّ النّقد، تقييماً وتقويماً وتقديراً، لا يهمل في نظر الإبراهيمي الجانب المضمونيّ من حيث تحقيقه لتصوّر الأديب (المسلم) القائم على عقيدته والملتزم بها. ولا شكّ أنّ نظرة الإبراهيمي تعكس أثراً من آثار التّصوّر الإسلاميّ العامّ في فكره ووعيه وفهمه لماهية الأدب وتمثّله لحقيقته وطبيعته، بوصفها محصلة للمضمون والشكل أو للفكر والفنّ.

ب- يُعنى الأساس الثاني بالتّعبير أو الشكل الأدبيّ، فالمضمون (الموضوع) وحده لا يصنع عملاً أدبيّاً ولا ينتج نصّاً أدبيّاً، بالمقاييس الفنية، ما لم يُعرض في شكل تعبيريّ فنّي يرتقي إلى مستوى الجنس الأدبيّ والنوع الفنّي المختار كقالب للتّعبير مستجيباً لعناصره لغة وأسلوباً وصوراً وبناءً ومحتكماً لمقوماته المؤنّثة له.

وهي الحقيقة التي كانت قائمة في وعي الإبراهيمي، فلم يتناس الدور الخطير الذي تنهض به لغة الشعر العربيّ القديم والشعر العربيّ الحديث والإحيائيّ منه، تحديداً، فهو عودة إلى القديم في أبهى صورهِ وامتداد له وذلك ما يُستتبط من دراسة الإبراهيمي للشعر وتوجيهه للشعراء.

ونخلص إلى أنّ الإبراهيمي كان يتبنّى مفهوماً للأدب، هو المفهوم الذي يتعارف عليه النّقاد، اليوم، بـ (الأدب الإسلاميّ)، أي الأدب بوصفه: "التّعبير الفنّي الهادف عن الإنسان والحياة والكون وفق الكتاب والسنة".⁽⁷⁾ أو بعبارة أوضح "التّعبير النّاشئ عن امتلاء النّفس بالمشاعر الإسلامية".⁽⁸⁾. والواقع أنّ للإسلام تصوّره الخاصّ، ومن الطّبيعي أن يتخذ التّعبير عن الحياة لدى الأديب المسلم لونا خاصّاً.⁽⁹⁾ يفترق، بحكم ذلك، عن أن يكون نسخاً واتباعاً وتقليداً لنماذج آداب الأمم الأخرى أو صورة طبق الأصل لها.

ومن هنا، من هذا الوعي النقديّ يخصّ الإبراهيمي شعر أحمد شوقي بالتّقدير الكبير والإعجاب العظيم الذي قد يقترب من الغلو في الحكم، أحياناً، فيقول في مقالته (الدّين في شعر أحمد شوقي)⁽¹⁰⁾:

"إنَّ لشوقي عليّ لحقاً أوجبتَه على نفسي حين غاليت بقيمته في شعراء العربيّة غابِرهَم وحاضرهم."⁽¹¹⁾ ففي هذه المقالة، يقدّم الإبراهيمي نظرة ثاقبة بعيدة الأثر تتسم بالعمق والشمول والتسامح والإنصاف والأخلاقية والإنسانية، فيوافق شوقي فيما يُعرب عنه، شعراً، من آراء، كراهيه في (الدين)، فالدين في شعر شوقي أعمّ من (الإسلام)، فيوافقه في ذلك ولا ينكره عليه، حين قول: "فشوقي تغنى بكل دين استحدث خلقاً أو تثبت فضيلة إنسانية أو زرع محبة بين الناس، أو أنشأ حضارة أو زاد فيها أو ولد فناً، أو كان إرهاباً بدين أكمل..."⁽¹²⁾ وفي هذا السياق، لا يخفى ما يوليه الإبراهيمي للشعر الذي يحفل بالقيم وبشيد بالأخلاق وبنوّه بالفضائل من أهميّة.

2.1.2 مِغْيَارُ التَّعَاطُفِ تُجَاهَ الْأَدِيبِ

يؤكد الإبراهيمي على معيار مهم كثيراً ما أشار إليه نقاد العصر الحديث في التعامل مع الأدباء وأعمالهم، وهو (التعاطف). وهو معيار يمكن من ملاحظة العمل باعتدال وحياديّة والاقترب منه دون أحكام مسبقة، فينبغي على النّاقِد والقارئ أن يضع في حسابه ومن بين أدواته هذا المعيار في تعامله مع الأديب وتناوله لنصوصه. ولماذا التعاطف مع الأديب ومع النص؟ لأنّ كلّاً من النّاقِد والأديب بشر.. وعمل النّاقِد يكمن في تقييم وتقويم تجربة إنسانية، وليس بصدد محاكمة- بما يوحي به لفظ (المحاكمة) من معان قاتمة. يقول الإبراهيمي في جملة تقيض تعاطفاً وتسامحاً مع الأديب الشّاعر ومقدراً لما تجيش به روحه من عاطفة ويجود به لسانه من بيان: "ونفس شوقي ينبوع متدفّق بالرحمة والحنان قبل أن تكون ينبوعاً متدفّقاً بهذه الزّوائع من الحكمة والبيان."⁽¹³⁾ إنّ (التعاطف) معيار من الأهميّة بمكان، يوطّد العلاقة بين القارئ والمقروء له، ويسمح برؤية النصّ أو العمل بكلّ وضوح وبلا حجاب أيّاً كان.

2.1.3 مِغْيَارُ الثَّقَافَةِ (ثَقَافَةُ النّاقِدِ وَالْأَدِيبِ)

يذهل الإبراهيمي متلقيه بسعة مقروئه الأدبيّ الشّعريّ القديم، وهو بذلك نموذج لما يحسن أن يتّصف به النّاقِد والأديب من تخصص نوعي وتبحّر عميق، ذاك في علمه وهذا في فنّه. وذلك ما مكّن الإبراهيمي من معرفة مصادر شوقي ومراجعته الشّعريّة، فيضع يده على ما في شعر شوقي من تجليات للشعر القديم ومن مظاهره، بشكل أو بآخر. فهو يدرك هذه الظاهرة الأدبيّة التي عرفها النّقد المعاصر بـ (التّناص)، وعرفها النّقد القديم بأسماء أخرى، بعيداً عن اصطلاح (السّرقة الأدبيّة). فيقول الإبراهيمي واصفاً الظّاهرة الملحوظة بعبارة متأدبة: "وشوقي يلمس في مناحيه الفكرية آراءً ومنازع صوفية للقدماء ويكسوها حلاً شعريّة تذهل بروعتها عن تعرف حقيقة رأيه ويغطي الاقتتان بالصور الشعريّة على التفكير في أصل الرأيين فضلاً عن الفروق والجوامع بينهما، ولشعر شوقي في بعض المواقف إشراق كإشراق البرق، يبهّر فيخفى فيه ما يكاد يظهر."⁽¹⁴⁾

ورَضَى الإبراهيمي بصنّاعة شوقي ظاهراً، فيُشِيدُ بشعريّة (شعره) ويُعْجَبُ ببراعته وروعته في استدعاء النّصوص الغائبة والوامضة وحُسنِ توظيفها، حيث لا ينتبه إلى أصولها ولا يعرف مصادرها إلا

قارئ خبير متمرس ضليع في فنّه وفي عمله. فمن دون ثقافة أدبيّة ومعرفة نقدية قد يُساء فهم النصوص، بل قد تؤوّل على غير دالاتها، وعلى غير توجيهات سياقاتها. ولا يتيسّر تقويمها بما تستحقّه من تقويم.

2.1.4 مِغْيَارُ التَّسَامُحِ تُجَاهَ الْمُخَالَفِ

يستبين هذا المعيار من خلال موافقة الإبراهيمي للشاعر شوقي في دعوته أهل الأديان إلى التسامح، ويشدّد التّكثير على من يتّخذ الأديان أداة تنازع واختلاف، فالأديان كلّها لله، وإن لم تكن كلّها من الله، وما دامت كلّها لله، فهي رحم جامعة، ومن البرّ بهذه الرّحم والرّعاية لهذا النّسب أن لا نتعاضد فيها.⁽¹⁵⁾ ومثال الأديان مثال لكلّ الأفكار المُخالفة والمُختلفة ولوجهات النّظر المُتباينة التي تتّسع لها الصّدور وتتسع لها العقول، وينبذ التّعصّب والتطرّف ليحلّ محلّهما التّسامح والعفو والتّراحم.

2.1.5 مِغْيَارُ الْإِلْتِزَامِ تُجَاهَ الْعَقِيدَةِ وَالْأَمَةِ

أرجع الإبراهيمي دعوة التّسامح عند شوقي إلى ولائه للدّعوة العثمانيّة، والتّزامه بها، وهو مظهر من مظاهر الالتزام بالأمة، بهذه الصّورة، يقول: "لإغراق شوقي في الدّعوة إلى التّسامح سبب آخر، وهو أن الدّعوة العثمانيّة التي هي ليلاه ومناط هواه، ومعتقد رجائه في إعزاز الإسلام كانت راعية للأديان الثلاثة، وتحت لوائها طوائف من اليهود والمسيحيين، فكان يخشى أن تتّخذ منهم أوروبا ذريعة للتّشويش على هذه الدّولة الإسلاميّة".⁽¹⁶⁾

ومن مظاهر التّزام شوقي بعقيدته، تَمَجِيدُهُ للإسلام وإقراره بتفوقه وجدارته، ويؤكد الإبراهيمي ذلك بالقول: "أما تمجيد الإسلام فلا نعرف شاعراً عربياً بعد شرف الدين البوصيري دافع عن حقيقة الإسلام كما دافع شوقي، وإذا كان البوصيري نظم لامية الإسلام بعد لاميتي العرب والعجم وقال في دين محمد وكتابه:

الله أكبر إن دين محمد وكتبه أقوى وأقوم قبلا

ثم ضرب له ذلك المثال الشرود في قوله:

لا تذكر الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئ القنديلا

ضرب شوقي في مدائحه وسائر شعره بالأعاجيب وأورد العشرات من الأمثال الشوارد، وأعانه على ذلك معارف عصره وعجائب العلم في عصره، وامتداد التاريخ بخيره وشره في ما بين عصر البوصيري وعصره، وتداعي الأمم على المسلمين تداعي الأكلة على القصاع، فكل ذلك أرهف إحساس شوقي وهاج شاعريته وأثار أشجانه، فهب يدافع عن الإسلام ويجهز من شعره الكتاب لا الكتب".⁽¹⁷⁾ ونلمح وراء كلمات الإبراهيمي الإعجاب بالتزام الشاعر تجاه عقيدته أولاً وتجاه أمته ثانياً، بكلّ مكوناته القوميّة.

وهكذا، يَجْمَعُ الإبراهيميُّ في تقدير شوقي وشعره بين الفنِّ والفكر، بين الشَّكل والمحتوى، ويؤكِّد على الالتزام بالعقيدة وبالأمَّة وقضاياها المُتَشَعِّبة. فيؤكِّد أنَّ "شعر شوقي في الأفق الذي تستقرَّ فيه الحكمة مجاورة للبيان، والذي يشارف السِّدرة التي لا مطمع إليها لأحد، ولا يحلَّق إليها ولو بجناح لبد، فلا يستفيد منه إلا الذي يقرأه بالتدبُّر والاهتمام وتصفية الدَّهن، وعند ذلك يعلم أيَّة براعة أوتيها هذا الرَّجل، وأيَّة قسمة من إشراق الدَّهن وجبروت العقل رزقها في الحملة التي أعده الله لقيادتها في نصرة هذا الدِّين. وفي أثناء ذلك تجد الغرائب من عرض سماحة الإسلام وخصائصه، وجمعه بين القوَّة والرحمة، وبناءه على العدل والإحسان وتجاربه الناجحة في هداية البشر وفي بناء الحضارة وفي إمامة العلم، وفي قيادة العقل، ثم يدس في تضاعيف ذلك دعواته عامة إلى التَّسامح تجري في النَّفوس جريان الماء، لأنَّه يعلم أنَّ قومه مغلوبون على أمرهم لا يقدرّون على الانتصاف لأنفسهم، فهو يقرعهم على ذلك ويدعوهم إلى الاتحاد ونفض غبار القرون والأخذ بأسباب القوَّة، وإن لهم في كل مكربة غمماً وما عليهم إلا أن يتحدوا، ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من هذه الفنون، يخرج إليها من عمود القصيدة ولو كانت في الرثاء أو في الأغراض البعيدة، حتى قال بعض ناقديه: إن شعره خال من وحدة القصيدة".⁽¹⁸⁾

ويتَّضح في آخر النصِّ المقتبس إمام الإبراهيميِّ بالمقاييس النّقديّة المعاصرة والمفاهيم الشّعريّة الحديثة كوحدة القصيدة وتعدّد الأغراض. وهو ينوّه باهتمام شوقي في شعره، مهما تكن أغراضه، بموضوعات مرتبطة بقضايا الإسلام والمسلمين حتّى وإن خرج عن موضوع قصيدته وعن غرضه فيها من رثاء وغيره، وذلك ممّا يحسب لشوقي.

2.1.6 مِغْيَارُ النَّصِّ/الأدب بدلاً عن النَّاص (الأديب)

يُشير الإبراهيميُّ إلى مبدأ مهمٍّ من مبادئ النّقد الأدبي المعاصر وقراءة نصوصه، وهو معيار (النّصّ) لا (الناص)، حيث (النّصّ) منطلقاً ومنتهاى القراءة، وترد تلك الإشارة ذات الأهميّة الكبيرة في سياق حديثه عمّا يسمّى (إسلاميّة نصّ شوقي) التي تتجلّى في استحضار الموضوعات والمضامين الإسلاميّة، واستدعاء الشّخصيات الإسلاميّة التّاريخيّة وفضاءاتها المكانيّة والزّمنيّة. ويرى الإبراهيميُّ أنّه ليس من واجب النّاقِد النّظر في شخص الأديب (الناص) لتقييم نصّه أو تقويمه، كما يبدو في دراسته لشعر شوقي، وإنّما التّحويل على الأدب (النّصّ)، فهو المرتكز، قائلاً: "والتدبُّن أثر الدِّين في النَّفس أو ممارسة شعائره بالجوارح وليس من موضوعنا المحدّد البحث عن تدبُّن شوقي بمعنى إقامته لرسوم الدِّين وشعائره، لأنّنا في شغل شاغل عن ذلك بهذا الفيض المدرار الذي يفيض به شعر شوقي في التّغالي بالإسلام وتاريخه وأماجه، وبهذا الإيمان القويّ بالله وقضائه، وبهذا التّصوير لبدائع مصنوعات، وبهذا التّرديد اللّذيذ للقرآن والحض على التّمسك به، وبهذا التّكرار الحلو للمقدّسات الإسلاميّة من ملائكة وأنبياء وصحابة وأماكن وأيام، فيغشى في شعره ذكر الله وجبريل ومحمد وإبراهيم وموسى وعيسى وعمر وخالد ومكّة والمدينة وبدر والقدس، وأسماء كثيرة لبناء المجد الإسلاميّ والعربي يكرّرها فلا تمل، ويصفها في

أماكنها فلا تختل، ويسمها ويصفها بخصائصها، ويجلي موضوع العبرة فيها والقودة بها، فتتألف من ذلك كله في عامة شعره صور بديعة تأخذ النفس أخذة السحر وتقضي به إلى الاعتبار ثم الاقتداء.⁽¹⁹⁾

والإبراهيمي بهذه الإشارة المهمة يقترب في تقدير النص ومقارنته من مناهج النقد الحديث التي عدلت عن كل السيئات إلى النسق أي إلى النص واعتبرته بنية مغلقة مستفيدة من فتوحات اللسانيات الحديثة، ومعلنة ذلك تحت شعارات متنوعة ك (موت المؤلف) مثلاً. وفي وصف الإبراهيمي لنص شوقي بالإسلامية وتعدد مظاهرها فيه، يجعل المدخل من النص لا من أي مدخل آخر بما في ذلك حياة الأديب (الشاعر) أو سيرته. ومن مظاهر إسلامية شوقي في شعره أنه يحتكم إلى شمائل الإسلام وأخلاقه وفضائله وأركانه في مدحه وراثته، وبذلك يرتفع ممدوحه ومرثيه أو ينزل. وهذا دليل آخر يدعّم الاتجاه إلى إسلامية النص، فيؤكد أن احتفاء شوقي في مرثيه ومدائحه بما يتصف به الممدوح أو المرثي من إقامة لدينه والتزام به، وهو حكم يستوي فيه الأفراد والجماعات والدول، "وشيء آخر يدل دلالة واضحة على إيمان شوقي بما يقول في ذلك، وهو أن مما يتقل ميزان الممدوح أو المرثي في حكم شوقي أن يكون مقيماً لدينه كما يريد الله، حتى الدولة العثمانية لم يفرغ عليها تلك الحل الخالدة إلا لأنها تخدم الإسلام وتعمل لإعزازه." ⁽²⁰⁾

ويستحضر الإبراهيمي الشواهد والأمثلة تصديقاً لرأيه، في إسلامية (الناصر) من النص، منها قول شوقي في رثاء حسين شيرين:

أبداً يراه الله في غلس الدجى في صحن مسجده وحول كتابه
وقوله في تعزية أهل دمياط⁽²¹⁾:

بني دمياط ما شيء بباق سوى الفرد الذي احتكر البقاء
تعالى الله لا يبقى سواه إذا وردت برئته الفناء
وأنتم أهل إيمان وتقوى فهل تلقون بالعتب القضاء
ملأتم من بيوت الله أرضاً ومن داعي البكور لها سماء
ولا تستقبلون الفجر إلا على قدم الصلاة إذا أضاء

وهناك شواهد كثيرة يلجأ إليها الإبراهيمي في تعزيز رأيه، فيقول: "وفي هذه القطع منازع لطيفة في فقه الدين تدل على ما لشوقي -رحمه الله- من رسوخ في فهم حقيقة الدين ومعنى التدين." ⁽²²⁾ ونتفق مع الإبراهيمي موجزين رأيه في أن (النص) أولاً وقبل كل شيء، ثم يأتي بعد ذلك الحكم لـ أو ضد (الناصر) من (النص) ذاته، وهو مبدأ مقرر في نقد هذه الأيام.

2.1.7 مغيّر الرسالة في الأدب (النص)

يدلّ معيار (الرسالة) في الأدب، على معلم من معالم الأدب الإسلامي، فللأديب رسالة يؤدّيها في مجتمعه وفي أمته، بوصفه أديب رسالة، وهذا ما يجعله ملتزماً بالمفهوم الإسلامي للالتزام - ويكون

لعمله غاية تبرّر وجوده بشكل ضمنيّ أو صريح، ويخلو من العبث المطلق الذي لا تستسيغه الفطرة ولا المسؤولية التاريخية والأمانة الزبانية. و(الرسالية) من سمات الأدب الإسلاميّ النابع عن التّصوّر الإسلاميّ ومن سماته البارزة. وليس معيّباً في الأدب أن يحمل الأفكار، إذا كان يوحى بها ولا يصريح، يشير ولا يقرّر، يغري بها ولا يفرض أو يلزم بها، بمعنى وهو يحمل الفكرة لا يخلّ بحقّ التعبير الموحى. ويملك الشّعر قدرة على التأثير بإيحاءاته وتخيالاته، ومن ثمّ قدرة على نقل ما يدور في ذهن الشّاعر ويرتسم في مخيلته بكيفية تجد مسلكها إلى قلوب المتلقّين بكلّ سلاسة.

ومن إسلاميّة شعريّ شوقي احتقّاه بتوحيّد الله عزّ وجلّ، هو أسّ خصائص التّصوّر الإسلاميّ التي تظهر في الأدب الذي يصدر عنه. وهو سمة ضروريّة لا يتنازل عنها ناقد أو أديب في هذا المجال، وهو ما سجّله الإبراهيميّ في قراءته لشعر شوقي، إذ يقول: "أمّا توحيد الله والإيمان بقضائه وقدره وغيبه ونشوره، فإنّ دارس شعر شوقي يستفيد منه ما لا يستفيد من كتب الكلام الجافّة بأنواع من الاستدلال الوجداني فتدخل النفوس من أيسر طريق، وتتغلغل إلى مكامن اليقين فيها، فتنتهي بها إلى غاية الغايات من الإيمان الصّحيح".⁽²³⁾ والإبراهيميّ، من هذا المنطلق، لا تغيب عن وعيه ما للأدب من أهميّة في التّربية الإيمانيّة وفي الدّعوة إلى التّوحيد والإيمان وإذاعة الفكرة الصّحيحة بطرائق أسلوبية ووسائل تعبيرية بيانيّة ووجدانيّة وخياليّة، وهي من أدوات الأدب الخاصّة المتميّزة. ومن الواضح أنّ أحكام الإبراهيميّ وملاحظاته عن شعر شوقي لا تأتي تعسّفاً، وتفرض عليه من خارج أنساقه وسياقاته، وإنّما هي مستنبطة ومستخرجة من النّصوص الشعريّة دون تأويل مفرط لها. ومن أمثلة ذلك موضوعة (القضاء) في شعر شوقي، التي يقول فيها:

القضاء مُعْضِلَةٌ	لَمْ يَحْلُهَا أَحَدٌ
كَلَّمَا نَقَضَتْ لَهَا	عُقْدَةً بَدَتْ عَقْدٌ
أَنْعَبْتُ مُعَالِجَهَا	وَاسْتَرَحَ مُعْتَقِدٌ

ومثال آخر، يقول شوقي عن (البعث) و(النّشر)، في تولستوي⁽²⁴⁾:

طَوَانَا الَّذِي يَطْوِي السَّمَوَاتِ فِي غَدٍ وينشرُ بعد الطّيّ وَهُوَ قَدِيرٌ

2.1.8 مِعْيَارُ التَّوَازُنِ بَيْنَ الْفِكْرِ (الْعَقِيدَةِ) وَالْفَنِّ الشَّعْرِيِّ

إنّ تحقيق التّوازن بين الفكرة (الإسلاميّة) والفنّ (الشّعريّ) أو ما يمكن تسميته بالمضمون الإسلاميّ والتّعبير الفنّي هو أحد مُقتضيات مفهوم التّصوّر الإسلاميّ في الأدب، وعلى قدر قوّة الفنّ الشعريّ وبراعة التّعبير فيه تكون قوّة الفكرة (العقيدة) التي يتمثّلها، والعكس أكثر صحّة ودقّة، فيقدّر قوّة الفكرة وعمقها (العقيدة) تكون قوّة الفنّ الشعريّ وروعته. وهذا المعيار يتّخذه الإبراهيميّ شرطاً ضمنيّاً في

قراءته لشعر شوقي، فيرى في براعة شوقي وإتقانه لفنّ القول، لاسيما في مدائحه النبويّة، دليلاً قوياً على قوة عقيدته وحضورها في شعره، و "من دلائل إيمانه القويّ بالله ورسوله ومحبّته لهما محبة ملكت شعوره، تلك المدائح النبويّة التي أرى أنّه تفوّق فيها على السّابقين الأوّلين، وبذّ فيها السّوابق القرّح من المجيدين في هذا الباب الذي لم يجد فيه قبله إلا اثنتان أو ثلاثة في تاريخ الملة الإسلاميّة.

إن في مدائح شوقي أنواعاً من الحكم، وأصنافاً من العلم وأمثالاً مضروبة ونصائح ومذكّرات لا توجد في مدائح غير شوقي".⁽²⁵⁾ إن قول الإبراهيميّ يؤكّد على ما لشعر شوقي في مدائحه، بخاصّة، من خصوصيّة ترتفع به دون غيره ممّن نظم في هذا الغرض. وما في شعره من تحقيق لمعيار التّوازن بين الفكر والفنّ فلا يطغى جانب على حساب آخر، وإثما يتحقّقان بنسب موزونة ومحفوظة، إضافة إلى أنّ القوّة في جانب تتعكس، حتماً، في الجانب الآخر.

وتتّضح في الاقتباسات المذكورة سابقاً إحاطة الإبراهيميّ علماً بمسائل النّقد القديم وقضاياها وتذكّره بمقاييسه، ونلمح إلمامه بما قيل في الخصومات الأدبيّة التي دارت بين النّقاد حول أفضليّة شعر على شعر، وعلاقة الدّين بالشّعر.

2.1.9 المُرْتَكزُ الفَنِّيُّ الأُسْلُوبِيُّ فِي نَقْدِ الإِبْرَاهِيمِيِّ لَشَعْرِ شَوْقِي

ينوّه الإبراهيميّ بما يصفه بـ (الجبروت الشعريّ)، ونصنّفه بـ (الشّعريّة) و (الشّاعريّة)، وينصح بالاعتدال والتّوسّط أو الوسطيّة (الشّعريّة)، ويشير إلى مبادئ فنيّة بنائيّة كحسن الختام، ويؤكّد على جمال اللّغة، حين يخصّ لغة الشّاعر من حيث صفتها شفافيّة وإيحاء وصدقاً، ومن حيث تأثّرها بمعجم عقديّ إسلاميّ واضح، ومن حيث تعبيرها عن سريرة مؤلّفها، حين يقول: "والذي لا يشكّ فيه قارئ شوقي أنّ لغته متأثّرة بالدّين إلى أبعد غايات التّأثّر، صادقة في شعورها بوحدايّة الله وعظمته وكماله، وبالاقتدار إليه والخوف منه".⁽²⁶⁾

ومن الواضح أنّ الإبراهيميّ تناول جانبيين هامّين في قراءته لشعر شوقي، ووقف عند مستويين؛ مُستوى المُحتَوَى أو المَوْضُوع، ومُستوى الشّكْلِ أو التّعبير، وأطال الوقُفّة عند المُستوى الأوّل وفي تناول المضمون، وذلك لأهمّيّته وخطورته في الأدب فهو المادّة التي يقوم عليها التّعبير، ولكونه مجلى التّصوّر الذي ينطلق منه الشّاعر، ولا يراودنا أدنى شك في كونه التّصوّر الإسلاميّ بخصائصه وسماته.

وأوجز وأجمل في وقفته عند المستوى الثّاني وفي تناول الشّكْلِ أو التّعبير من خلال الإشارة إلى لغة الشّاعر وإلى معجمها الإسلاميّ وقدرتها على الإيحاء والدّلالة على انفعال الشّاعر وامتلائه بإيمانه. وهما دِعَامَتَانِ أُسَاسِيَّتَانِ وشرطان ضروريّان في (الأدب الإسلاميّ) الذي يركّز إلى التّصوّر الإسلاميّ لله وللبشر والكون والعالم من حيث مضمونه، وإلى التّعبير الفَنِّيّ من حيث شكّله.

والملاحظ أنّ الإبراهيميّ يقف على أرضيّة صلبّة من هذا التّصور، ويدركه بكلّ أبعاده، ويمارسه بوعي، وإن لم يسمّه صراحة لأنّ المنظومة الاصطلاحية المعاصرة للأدب الإسلاميّ ونقده كانت قيد

التأسيس في تلك الفترة، ولم تتبلور بالشكل الكافي وإن كانت تُمارَسُ بطريقة أو بأخرى، كما يبدو في مُمارَسَاتِ الإبراهيميِّ النَّدِيَّةِ موضوع قراءتنا.

2.1.10 التَّوصِيفُ النَّدِيُّ لِلشَّاعِرِ

بناءً على تقدير الإبراهيميِّ لشعر شوقي، فقد خصَّ الشَّاعرُ بعناية لافتة للانتباه، وأنزله منزلةً مُعْتَبَرَةً، فقدَّمه على غيره من شعراء العربية، وأبدع في وصفه؛ فوصفه بـ (شاعر الإسلام) و (شاعر العربية) و (شاعر الشرق)، وفي سياق واحد نعتة بالنَّعوتِ الثلاثة وبكلمة واحدة (شاعر الإسلام والعربية والشرق) في خطاب تعزية (مات شوقي) إثر وفاته، فنعتة بشاعر الإسلام الذي يعتز بمفاخره، ويشدو بمآثره، وينطق بلسانه، ويجول في ميدانه، ويدعو إلى جامعته، ويمشي في ركاب خلافته، وبشاعر العربية الذي تشرب روحها وتملكت هي روحه، فحمى أسلوبها ونغمتها، وعرضها على أهل هذا القرن معربة عنه، كما أعربت عما قبله بلغة فصيحة، فحمل لواءها خفاقاً في الآفاق، كما توج على شعرائها في الأقطار باستحقاق. وبشاعر الشرق الذي كان يهتز قلبه لهزاته، وتضطرب حياته لاضطراباته، وترتفع آهاته مع آهاته، فيدوي حتى لتتحرك له جبال، ويهلع منه رجال، وتسري كهرياؤه حتى لترتبط بها بعد الشتات أوصال، وتحيا بها بعد الموت آمال.⁽²⁷⁾

ونَعَتُهُ في موضع آخر بـ (شاعر العرب) في مناسبة إحياء ذكرى شوقي، يقول فيها: "إني مغتبط لإحيائكم لذكرى شوقي شاعر العرب في وقت هم فيه أحوج ما يكونون إلى صيحاته التي تحرك الخامل وتهز الجامد، وإلى نغماته التي تنعش العاملين وتنبيه الخاملين".⁽²⁸⁾ لقد أولى الإبراهيميُّ هذه العناية لشوقي وأنزله هذه المنزلة لمواقفه المشرفة من عقيدته وأمته وهويته ولغته.

2.1.11 القِرَاءَةُ النَّصَائِيَّةُ لِلشَّعْرِ

ومن المعلوم أنَّ قراءة الإبراهيميِّ لشعر شوقي لم تكن قِرَاءَةً عَابَرَةً أو قِرَاءَةً عَابِرٍ؛ أي مجرد قراءة سطحية تتوخَّى الاستمتاع بهذا الشعر، وتنتهي بالانتهاء منه والفراغ من قراءته، وإنَّما كانت قراءة نقدية عَليمَةً وَاعِيَةً عميقة محيطة تحفُّر في الأعماق مُدركة لكل أبعاده ومتطلعة إلى الآفاق، تتناول النَّصَّ في نسقه وفي السِّياق الذي يتلوَّن ويتشكَّل خلاله جِنْسُهُ وثقافته.

لقد درس الإبراهيميُّ شعر شوقي، ووقَّف من خلاله على كلِّ النصوص السابقة الغائبة الحاضرة التي تُرَفِّدُهُ وتندمج في بُنيَّاتِهِ، وأجرى مُوَازَنَاتِهِ ومُقَارَنَاتِهِ بينه وبين كبار شعراء العربية في القديم، ولمس مواطن التفوق والامتياز عند شوقي على غيره، قائلاً في ذلك: "وصل شوقي بشعره حينما اقتحم به جميع الميادين إلى مرتبة من مراتب الخلد لا يستطيع وصفها إلا هو... ولقد دأب شوقي بتقليد المتبني في أول أمره فجاراه، وما كبا وما قصر، ثم شآه في التشبيب الصادق والغزل الرقيق، ثم طاوله فطال عليه في وصف الآثار الباقية عن الحضارات الدائرة، وفي التغني بالأمجاد الغابرة لبني جنسه أو بني وطنه، على حين كانت عبقرية المتبني لا تتجاوز به مدح شخص بجود، أو شجاعة في وصف حروف وانتصارات قد

يكون الغناء فيها لغير الممدوح، ولا تبرز العبقرية إلا في الحكم التي سجلها والأمثال التي سيرها، أما الوصف الذي تتبارى فيه قرائح الشعراء، وتتجارى سوابقهم فيه فليس للمتنبّي فيه كبير قيمة إذا استثنينا قصيدته في شعب بوان وقصيدتيه في وصف الحمى وفي وصف الأسد وفي قطع قليلة من شعره".⁽²⁹⁾

وهكذا، يرى الإبراهيمي أنّ شوقي قد تفوق على المتنبّي في التشبيب الصادق والغزل الرقيق، وفي الوصف الذي تتبارى فيه قرائح الشعراء، وقد ساق مُسوِّغات هذا الحكم. ويجدر لفتُ الانتباه، ههنا، إلى تفقّه الإبراهيمي في شعر المتنبّي وأضرابه. ويُبدي رأيه في شوقي بصراحة وجرأة ودون مواربة في قوله: "ورأيي في شوقي معروف في المشرق والمغرب بين خلصائي وخطائي من المتأدّبين، فلم أزل - مذ كان لي رأي في الأدب - أغالي بقيمة شوقي في الشعراء السابقين واللاحقين، وربما شاب هذا الرأي متي شيء من الغلو في مقامات الجدل والمفاضلة بين شعراء العربيّة، وما كنت أتهم نفسي بعصبية لشوقي، ولا كان الناس يتهمونني بتحيز، لأنني كنت قواماً على شعر شوقي أستحضره كله وأستظهره كله، حتى ليصدق علي أنني راوية شوقي بالمعنى الذي يعرفه أسلافنا في الرواية، ولقد حفظت الشوقيات القديمة قبل هجرتي الأولى إلى الشرق سنة 1911 ميلادية. ثم أحفظ من شعر شوقي ما جدّ بعد طبع الشوقيات الأولى، واستوعبت شعره في منفاه بالأندلس حفظاً لأوّل ظهوره في الصّحف أو في أجزاء ديوانه بعدما طبعت".⁽³⁰⁾

ولم يَنْتَه الإبراهيمي إلى هذا الحدّ من الإعجاب المؤسّس والتقدير الموضوعي لشعر شوقي، بل دعا النّاشئة، هنا في الجزائر، إلى الانتماء بشوقي واحتذاء أساليبه في أوّل فرصة سانحة، في بداية النّهضة الأدبيّة؛ حيث يقول: "وما كادت تلوح النّهضة الأدبية في الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى، ويكتب لي أن أكون أحد قادتها حتى كنت أول الدّاعين دعوة جهيرة إلى الانتماء بشوقي وإلى احتذاء طريقته والسير على نهجه في الأدب العربي، وأول الدالين على روائع شعره. ولما جدّ جدّ تلك النّهضة، وتعددت المدارس العربية على يد جمعية العلماء الجزائريين، وقدر لي أن أكون المشرف على توجيهها، مكّنت لشعر شوقي في نفوس الآلاف من النّاشئة الجزائرية، فانبنت تلك النّهضة من أولها على أدب شوقي وشعره، وفهمته ناشئتاً على وجهه لحكمه وأمثاله ولحسن تصويره ودقة وصفه، ولسهولة مدخله على النفوس، وإن آفاً عديدة ممن ارتقوا ولو قليلاً في سلم الأدب ليحفظون من غرر شعر شوقي وسوائر أمثاله ما يجلّون به كتاباتهم وخطبهم ومجالسهم للذاكرة، وإن كثيراً من الشعراء الذين أنجبتهم النّهضة الجزائرية ليرسمون خطى شوقي ويسيروا على هذاه، وتلوح عليهم مخايله وسماته".⁽³¹⁾

ولم يطالب الإبراهيمي النّاشئة، يومئذ، بتمثّل شعر شوقي والسير على نهجه الفنّي وطريقه الشعريّ عن غير دراية وخبرة، فقد أشار إلى أسباب موضوعيّة تتّصل بمضامين شعر شوقي الإسلاميّة وترتبط بأساليبه البليغة وطرقه العربيّة الفصيحة من (حكم وأمثال وحسن تصوير ودقة وصف، وسهولة مدخل على النفوس...).

ومن عوامل تَمَكِينِ شعر شوقي وأدبه في مقرّرات وبرامج المدارس ونفوس الناشئة شدة ارتباط شوقي بالإسلام وحضارته وآثاره وأخلاقه ومثله ورجاله... وهذا قسم يضاف إلى جهة المضامين الإسلامية الفكرية والشعورية الوجدانية التي حظي بها شعر شوقي والتي تتماشى والفطرة الإسلامية النقية التي نشأت عليها الناشئة والشباب الجزائري؛ يقول الإبراهيمي: "وأول ما حبّب شوقي إلى نفوس ناشئتنا- على طراوة عودهم- هو ما يفيض به شعره من تمجيد للإسلام وبيان لآثاره في النفوس وتغن بآثاره وأمجاده وافتتان في مثله العليا التي قاد بها أتباعه إلى مواطن العزة والسيادة. ولا عجب، فناشئتنا نشأت على الفطرة الإسلامية النقية، وشعر شوقي أبلغ معبر على تلك المعاني العالية، ونهج شارع إلى سبل التأسّي والاقتداء".⁽³²⁾

ولهذا كلّه، كان موت شوقي بالنسبة للإبراهيمي وللأندية الأدبية الناشئة بالجزائر خسارة فادحة وصدمة قوية، فقد كانت هذه الأندية تأتمّ بشوقي وتسير على هديّه وشعاعه.⁽³³⁾ وقد كان لشعر شوقي أثر عميق في النهضة والثورة الجزائرية كما يؤكّد ذلك الإبراهيمي بقوله: "إن الجزائر الفتية مدينة بجميع فروع نهضتها بل في أصول ثورتها لشوقي، فكم حدونا الشباب بشعره المطرب القوي، ووجهنا ذلك الشعر إلى مكامن الإحساس من نفوسهم، فكان ذلك أحد الأسباب في ثورته الخالدة التي أقضت مضاجع الفرنسيين وأنت بخوارق العادات من الشعب الجزائري".⁽³⁴⁾

وفي ختام عرضنا لقراءة الإبراهيمي لشوقي لا بد من التأكيد على ما يلي:

- إن قراءة الإبراهيمي لشعر شوقي هي قراءة تلمّ بعناصر شتى بدءاً من الأديب (المرسل) إلى أدبه (الرسالة) إلى متلقيه (المرسل إليه) والأثر الذي تلقاه بوصفه قارئاً، والأثر الذي يتركه فيما يحيط به وفيما يأتي ويحتمل أن ينتج من نصوص.

- تستند قراءة الإبراهيمي إلى نظرية الأدب الإسلامي ونقده وإلى مفاهيمها المتعددة، مسئلة وظيفة النقد الأدبي وغايته واللّتين تتلخّصان- كما حدّدهما سيد قطب- في: "تقويم العمل الأدبي من الناحية الفنية، وبيان قيمته الموضوعية، وقيمه التعبيرية والشعورية، وتعيين مكانه في خط سير الأدب، وتحديد ما أضافه إلى التراث الأدبي في لغته، وفي العالم الأدبي كله، وقياس مدى تأثره بالمحيط وتأثيره فيه، وتصوير سمات صاحبه وخصائصه الشعورية والتعبيرية، وكشف العوامل النفسية التي اشتركت في تكوينه والعوامل الخارجية كذلك".⁽³⁵⁾

- تُسهم قراءة الإبراهيمي في تعزيز الرّصيد النظريّ للأدب والنقد الإسلاميين، وتُعين في استنباط مفاهيم وأدوات تمكّن من قراءات صحيحة للأدب وترسيخ تقاليد أصيلة في إنتاج النصوص وفي الإبداع بصفة عامّة.

2.2 قراءة الإبراهيمي لشعر الشاعر الجزائري محمد العيد آل خليفة

تأتي قراءة الإبراهيمي، في هذا المحور، لشعر الشاعر الجزائري محمد العيد آل خليفة مُستجِبةً لذات المُنطَلَقَاتِ التي جعلته يُؤثِّرُ شعر شوقي سابقاً وهي إسلاميّة المضمون وجماليّة المحتوى (النص)، وسنتناول هذه القراءة مستنبطين سمات الأدب الإسلامي ومعايير نقده.

2.2.1 مِغْيَارُ التَّفَاوُلِ والإيجابية

يتميّز الأدب الإسلامي بأنّه أدب الفطرة السويّة التي تنفر من التّشاؤم والسلبية وكل مظاهر الإحباط، فهو أدب التّفاوُلِ والإيجابية⁽³⁶⁾ والرجاء كما يذكر الإبراهيمي، ومن ثمّ فَحَالَاتُ التّشاؤم واليأس والإحباط القويّة العنيفة هي مَشَاعِرٌ مُؤدِّيّةٌ لا تُعْزِي الأديب المسلم، وهو في مَنَاعَةٍ ضدها، ولا تعزّي الشاعر المسلم التقي-بهذه الصفة التي يؤثرها الإبراهيمي-إنّها وانفعالات حادّة مضرّة لا تكون من صفة المسلم، ولا تتخلل سلوكه ولا تتمظهر في قوله.

ويدعو الإبراهيمي الشاعر المسلم إلى التّفاوُلِ واجتناب كلّ ما من شأنه أن يثبّطه ويهدر قوّته ويشلّ نشاطه ويستنفذ طاقته من شعور بالإحباط واليأس والقنوط، وما هو يقول في كلمة وجهها إلى شاعر الشّباب محمد العيد آل خليفة، وقد لمس في نفسه حزناً ورأى في قوله أسي مبرحاً: "طالما سمعت من كلمة (اليأس)، وبودي أن لا أسمعها منك مرة أخرى، لأنني أعدّها غميمة في شاعريتك. ولولا شدوذ نعرفه في نفوس الشّعراء كأنّه من معاني كمالهم لما صدّقنا باجتماع اليأس والشّعور، وكيف ييأس الشاعر وهو ملك مملكة الآمال وسلطان جوّ الخيال. فإن كان تقيّاً رجع من (رجاء الله) إلى ما لا يحدّ له أمد. فكيف تياس نفس الشاعر لولا ذلك الشدوذ؟ لقد قال أولكم:

حرّك منك إذا اتم مت فإنّهن مراوح

وما قالها لغيره إلا بعد أن جرّبها في نفسه... فلا تياس يا بني ولا تكذب إمامك الذي يقول: خلق الشاعر سمحاً طرياً".⁽³⁷⁾

وشيء آخر جدير بالتّنويه وهو العلاقة الحميمة الأبويّة الإنسانيّة العارمة التي تجمع النّاقِدَ بالشّاعر، وهذا الأسلوب الفريد في التّربية والتّوجيه الذي يسدي من خلاله النّاقِد نصحه للشّاعر. علاقة يَكْتَفِيهَا التّواضُعُ والحبّ والتّعاطف، فكأنّ النّاقِد يحدث ولداً له، يقول الإبراهيمي في مستهلّ كلمته الآنفة الذّكر: "ولدي طالما قرأت في وجهك الشّاحب آيات الحزن، وتلمّحت في قسماتك دلائل الهمّ والأسى، وكم حركتك بمعاريض من القول علني أستبين شيئاً من حقيقة هذا الهمّ الدّفين الذي تنطوي عليه أحنأوك. وهذا الأسى المبرّح الذي أعلم أنّك تقاسيه. كمن يستجلي المعنى الدّقيق من اللفظ المعقّد. وإن بين التّعقيد ونفوس الشّعراء (الأتقياء) نسباً وثيقاً. ويا لله للنفوس الشّاعرة التّقيّة وما تلاقيه من عناء ممضّ يتقاضاها الشّعور إطلاقاً، فيتقاضاها التّقيّ تقييداً... لها الله فماذا تفعل!"⁽³⁸⁾

ويستمرّ الإبراهيميّ في ترسيخ سلوكه التّربويّ الفذّ وتأسيس فنّ عالٍ لتعامل النّاقّد والشّاعر، ويعمل على توطيد علاقة مُثلى ترقى إلى علاقة الأب الرّحيم بولده المحزون، فيقول في آخر كلمته: "قرأت زفراتك هذه الساعة في الشّهاب وأنا طريح الفراش، أعالج زكاماً مستعصياً ونزلة شعبيّة، وسعالاً مزمناً وأولاداً يطلبون القوت أربع مرات في اليوم، وتلاميذ يطلبون الدّرس سبع مرات في اليوم والليّلة فقلت: وهذه أخرى. إنّ ولدنا هذا لذو حق. وكتبت لك هذه الكلمات كما يكتب الأب الشّفيق إلى ولده الرّفيق. وعسى أن يكون فيها ترويح لخاطرك".⁽³⁹⁾

إنّ الإبراهيميّ يقدّم نموذجاً نادراً عزيزاً للعلاقة الّتي يجب أن تكون قائمة بين النّاقّد والأديب. فلا يعامل هذا ذلك إلا بالمودّة والحبّ والرفق.

وبلّاقيناً في المقابل الشّاعر محمد العيد آل خليفة بنموذج رائع للأديب المنصت، ولا يرى في انتقاد الإبراهيميّ له بهذه الطّريقة أيّ إساءة، فيردّ عليه بطريقة شعريّة رائعة⁽⁴⁰⁾:

أبي (البشير) سلام زاك وشوق كبير
لا زلت فينا منارا بضوئه نستنير
وافى كتابك يهدي إلي المنى ويشير
تذكو العبارة فيهما ليس يذكو العبير
إذا فؤادي سال وطرفي قريـر
قد ارتددت بصيراً فكيف يغوى البصير؟
قميص يوسف ألقى به علي (البشير)!
يا آسي اليأس زدني كشفا فأنت خبير

وبعيداً عن الغرور والكبرياء والعُجب، يُنصت الشّاعر ويستنهد بإضاءات النّاقّد في أدب وجمّ. بقدّم كلّ من النّاقّد والشّاعر نموذجاً رائعاً راقياً للعلاقة الأدبيّة الّتي تصل النّاقّد بالشّاعر وتصل الشّاعر بالنّاقّد.

2.2.2 مغيّر المعرفة الأدبيّة وأدواتها

لا تقوم الصّناعة الشعريّة على الموهبة أو المَلَكَة بمفردها، فهي في مسيس الحاجة إلى المعرفة بهذه الصّناعة وإلى ثقافة هذا الفنّ؛ أي في حاجة إلى التعلّم والدّربة والمِران والمُمَارَسَة. وبالمكتسب المعرفيّ والفنّي تُصقل موهبة الشّاعر المفطور والأصيل والموهوب في شخصيته الأدبيّة، وتستوي التّجربة من كلّ جوانبها. ويبني الشّاعر صرحه الفنّي على أسس متينة من الموهبة والمعرفة.

ويرى الإبراهيميّ، العارف بأسرار الصّناعة الشعريّة وخبير بمقوماتها، والمقدّر لأهميّة كلّ طرف، أنّ الموهبة وحدها لا تسدّ حاجة الشّاعر، وإنّما تفتقر إلى ما يدعمها من مواد الثّقافة والمعرفة والفنّ الضروريّة. ويبين ما يحتاج إليه الأديب من معارف أساسيّة تُسَعِّفُ الموهبة، وتُصقل الذّهن وتُهدِّبُ

الفترة، وتتمثل موادّ المعارف الأساسيّة المكتسبة في أنواع من المعرفة المتنوّعة تشتملُ عليها كتب اللّغة وكتب الأدب وكتب النّقد وكتب الأخبار والسّير، ولكلّ نوع من هذه المعارف دوره ووظيفته في التّكوين. ويعرّضُ الإبراهيميّ لهذه المسألة في حديثه عن الأدب في الجزائر، قائلاً: "إنّ الأدب عندنا في الجزائر لم يكمل ولم يزل بينه وبين الكمال مراحل، والذي عندنا إنّما هو استعداد للأدب ولكنّه بدون أدوات، فهو يعتمد على المواهب التي ورّعها الله على عباده، وجعل حظوظهم منها متفاوتة، فمن آتاه الله من أبنائنا حظاً من الموهبة وقف عندها وأخذ يعصر المواهب عصرّاً، فتبضّ له بشيء وتشح بأشياء، لأنّه لم يرفدها بالأمداد التي تفتقر إليها، والمواد التي تتغذى منها من المحفوظ، والمقروء المهضوم، والمدرّوس المفهوم، فالملكات الأدبية لا تكفي فيها القريحة والطّبع حتّى تمّدها الصّنع بمدادها، وأولّها متن اللّغة غير مأخوذ من القواميس اللّغوية لأنّها لا تنتهي بصاحبها إلى ملكات لغوية ولا أدبية، وإنّما يجب على من أراد أن يربي ملكته على أساس متين أن يأخذ اللّغة من منشور العرب ومنظومهم، فيستفيد بذلك فائدتين: الأولى الكلمة ومعناها، والثّانية وضعها في التّركيب وموقعها منه وموقعه من النّفوس، وحسن التّركيب هو سرّ العربيّة، ويسمّيه علماء البلاغة حسن التّأليف، ومن كلماتهم التي سارت مسير الأمثال قولهم: ولكل كلمة مع صاحبها مقام. أما أخذ الألفاظ متناثرة من كتاب لغة كالقاموس المحيط ثمّ وضعها في تركيب كيما اتّفق، فإنّه عمل بعيد عن التّوفيق مجانيب للصّواب لأنّ صاحب القاموس لم يرد أن يكون بكتابه أدبياً، وإنّما أن يخلق مدرساً".⁽⁴¹⁾

تلك بعض عدّة الأديب شاعراً وناثراً، والأديب مُلزمٌ بالنّظر في متون اللّغة بالشّروط التي نَبّها عليها الإبراهيميّ، وهي أن يتعلّم (اللّغة) في سياقاتها المختلفة، النّصية وغير النّصية؛ في سياقها الأدبيّ والنّفسي والاجتماعيّ، أو في (مقاماتها) النّداويّة بالاصطلاح البلاغيّ، ولا يغني في تعلّم متن اللّغة حفظ المفردات بمعزل عن التّركيب أو النّظم أو التّأليف، وما ينتج عنه من معانٍ، فعلى الأديب أن يراعي ما يسمّى بـ (حسن التّأليف) وأن يتلقّى اللّغة في استعمالاتها الأدبيّة، ومعناه أنّه لا يكتمل، في تكوين الأديب المعرفيّ والثّقافيّ، الاطلاع على اللّغة في المعاجم والإحاطة بمعانيها الوضعيّة الحقيقيّة حتّى يضمّ إليها اللّغة في استعمالاتها الحيّة وبدلالاتها المجازيّة الانزياحيّة.

وعلى هذا الأساس فرّق الإبراهيميّ بين نوعين من المتون اللّغويّة والأدبيّة، فيقول: "وإذا ذكرنا قاموس الفيروز آبادي، وما كلّ القواميس مثله: فلسان العرب كتاب يعلم اللّغة، وكتاب المقاييس لابن فارس كتاب لغة يعلم الأدب، وكتاب المخصص لابن سيده كتاب لغة وأدب معاً، أمّا اللّغة الحقيقيّة فهي أشعار العرب وأحاديثهم وخطبهم ومحاوراتهم، وأمّا كتب الأدب المحض فهي كتب الجاحظ والمبرد وابن قتيبة وكتب المحاضرات، من مثل عيون الأخبار ومحاضرات الأدباء والعقد الفريد ولباب الآداب للأمير أسامة بن منقذ، وكتب النّقد ككتابي قدامة بن جعفر على صغر حجمهما، والصناعتين للعسكري، والعمدة لابن رشيق حتّى تنتهي إلى المحيط الهادي: الأغاني وما أدراك ما الأغاني".⁽⁴²⁾

هذه، إذاً، بعض لَوَازِمِ النَّقَّادَةِ والمعرفة الأدبية التي لن يكون للأديب شاعراً وناثراً غنى عنها، وبها يعلو كعبه ويرتفع شأنه وتستوي تجربته وتنهض موهبته. وعليه إذن، بمراجعة موادّ تكوينه وقراءتها بتأنٍّ ودرس وتروٍّ، مستزيداً من فوائدها الجمّة، وبعد أن يفرغ من ذلك النوع الأول ينصرف إلى النوع الثاني فيدرس كتب النقد، وهكذا، يقول الإبراهيمي "ومحال أن تكتمل ملكة في الأدب لمن لم يقرأ هذه الكتب كلّها قراءة تأنٍّ ودرس، ويحفظ لكل شاعر مجل جاهلي أو إسلامي أشرف شعره وأجزله، ثم يأتي كمال الأدب وهو أن يعرف طبقات الشعراء وموازينهم وخصائصهم، وأن يعرف من السير والأخبار ما يحلّي به أدبه نظماً أو نثراً، فإنّ الأدب بدون هذه الكتب كالطعام بلا ملح".⁽⁴³⁾

إنّ قراءة ما أشار إليه الإبراهيمي قراءة واعية منتخبة تخصب التجربة وتوسّع الآفاق وتحفر في الأعماق، وتعمل في المحصلة على تنقيف الأديب وتعزيز رصيده المعرفي والفكري الذي يتجلّى في أدبه ويتحلّى به، والذي يعد في الآن ذاته أحد مداخل الناقد الحاذق إلى هذه التجربة، وتستظهر تناص وتعالق نصوصه مع النصوص الأدبية وغير الأدبية القديمة التي تقبع في خلفية التجارب والنصوص، وتثري أبعادها الإيحائية اللامتناهية.

إنّ هذه الفكرة هي ما يحدّد تجربة الإبراهيمي كناقد عالم وقارئ خبير، وهي ما يختزله بالقول: "وما سمعت قطعة من الشعر لأديب ولا قرأت له قطعة نثرية إلّا عرفت منها ما قرأ من الكتب، ولقد وعكت مرّة فأرسل إلي أديب يسألني بقطعة من الشعر، منها:

أيّها الحاكي أبا شبرمه إذ رماه الدهر بالضرّ ورامه
ليتني جنّت كيحي عايذا ناذرا عتق غلام وغلّامه

والحكاية متكرّرة في كتب المحاضرات، فلقيته بعد زوال الوعكة وسألته عن غفلة: هل استوعبت قراءة عيون الأخبار؟ فأجاب نعم، والعقد الفريد؟ وكذا وكذا الكتب سماهنّ من كتب الأغذية العقلية، وهو صادق، فإن آثار القراءة العميقة بادية على شعره كما تبدو آثار الأغذية الصالحة على الجسم فراهة وقوة وحيوية".⁽⁴⁴⁾ إنّ تلك الأغذية الصالحة لبادية في النصوص الجيدة حسناً وجمالاً وعمقاً وبعداً.

ويُفيدُ مقبوس الإبراهيمي أنّ التّراث الأدبي والنّقّافي المقروء والمستلهم، على تنوّع مصادره، تدخل موادّه في نسيج النصّ الأدبيّ، وتُنصّهُرُ ليستقيم نصّاً بديعاً مدهشاً عميقاً دسماً، ولا شك أنّ لهذا التّوظيف التّراثي في الأدب نظريته التي قام عليها تيار من النّقد الأدبيّ المعاصر.

وقد لاحظ الإبراهيمي بعض الفقّر المُشِين في تجارب من الأدب الجزائريّ في العصر الحديث، ويجعل سببه قلّة القراءة من ناحية، ومن ناحية أخرى القراءة غير المتدبّرة أو القراءة التي تقمش من هنا وهناك -كما يقول الإبراهيمي- أو قراءة تلتقّ في المحصلة النّصوص المبتوّرة الأوّسّال. ويظهر أنّ الإبراهيمي قد خبر التّراث الأدبي واللّغوي العربيّ وتعمّق في الإحاطة بالأدب العربيّ الحديث إلى درجة مُذهّلة تُمكنه من الحكم بأنّ "كل ما يستعمله الشعراء والكتاب اليوم كلمات متداولة محدودة، لا تتجاوز

مجموعها خمسة عشر ألف كلمة، وهي بضاعة السوق، فإذا كانت كافية للاستهلاك اليومي الضّروري، على لغة الاقتصاديين، فإنّها لا تكفي للمطالب التكميلية والتّحسينية في الأدب، والمواضيع تتجدّد، والمعاني تتوارد وتتشابه ثم تتمازج ثم تتمايز، فمن الواجب أن ننحت من هذا المعدن القديم كلّ يوم جوهرة ونصقلها".⁽⁴⁵⁾

ولا يكتفي الإبراهيمي بالدّعوة إلى الاستفادة من الرّصيد الهائل للغة والشّعر، ويدعو إلى الإبداع في اللّغة والإضافة إليها والاشتقاق منها، والتّجديد فيها، بما يُغني الشّعر والأدب. وأثر النّقافة في الأدب لا تتجاوزه عين النّاقّد أو القارئ، وإن خفي ذلك الأثر وذاب في النّصوص. فمنه يزدان النّص ويتميّز الأسلوب، ويغنى الفكر وينشط الخيال.

وتضيف قراءة الإبراهيمي لشعر محمد العيد آل خليفة إلى نتائج قراءته المتقدّمة ما يلي:

- ضرورة اتّسام الأدب بالنّفاؤل والإيجابية، وهي صفات تتولّد من شخصيّة الأديب، وتنعكس في أدبه.
- تعاطف النّاقّد والقارئ له قيمة خطيرة في توجيه الأديب.
- ضرورة التّثقيف والتّعلّم في تكوين الأديب والنّاقّد على السّواء.
- تجاوز الموجود والموروث إلى الإبداع والخلق والتّجديد.

2.3 قراءة الإبراهيمي لشعر الشّاعر السوري عمر بهاء الدّين الأميري

إنّ المنطلقات النّقدية الإسلاميّة ذاتها تتجدّد في قراءة الإبراهيمي لشعر عمر بهاء الدّين الأميري، ومن المسلّم به أنّ شعر الأميري يندرج في تيار (الأدب الإسلامي)، ويلتزم به تصوّراً وتعبيراً. فشعره يتخلّى بما للأدب الإسلامي من جماليات خاصّة وفنّيات متميّزة، على مستويي الشّكل والمحتوى، ولهذا المضمون وبهذا التّعبير أضفى عليه الإبراهيمي استحسانه وإعجابه ودهشته منه. ونتناول في هذه القراءة قضيتين مهمّتين تتعلّق الأولى بمعيّار الموضوعيّة والثّانية بوضوح أثر الدّين (الفكرة) في الإبداع الأدبي.

2.3.1 معيار (الموضوعيّة) في النّقد

يُبدّي الإبراهيمي انطباعاً نقدياً موضوعياً بعيداً عن مجرّد ردّة فعل لتلقّي شعر الأميري، ومن ثمّ يبعد عن أن يكون انفعالاً ذاتياً وجدانياً عابراً بفكرة النّصّ المقروء أو المسموع، ولا شيء بعد ذلك الانفعال الدّاتي. إنّ انطباع الإبراهيمي النّقدي يتمخّض عن قراءة نافذة وعن مقاربة مباشرة لعوالم النّصوص، وأحكامه النّقدية مبرّرة في النّصوص ذاتها، وله من القرائن النّصيّة ما يؤيّد أحكامه تلك، ومن ذلك ما يراه في شخص الشّاعر السوري عمر بهاء الدّين الأميري وفي شعره (خُماسيّاته الشعريّة) وديوانه (مع الله). فالأميري في نظر الإبراهيمي "شاعر موهوب، رقيق الحسّ، وجدانيّ النّزعة، خصب الشّاعريّة، مستجيب الطّبع، متدفّق الطّبع، صادق التّأمّل، واسع التّخيّل".⁽⁴⁶⁾ و "هو مع شبابه وإمامه بمعارف عصره، وملابساته لفتن عصره، متين الإيمان بالله، صادق التّعبد له، قويّ الخوف منه...".⁽⁴⁷⁾ وهي أحكام سواء

في حقّ الشّاعر أم في حقّ شعره يخرج بها من بعد قراءة ديوان الشّاعر (مع الله) مع ذلك الإعجاب الذي يظهره وتلك الدهشة منه، يقول الإبراهيميّ معترفاً بذلك: "دهشت لهذه الشّاعرية الجيّاشة التي وهبتها الفطرة الصّافية لهذا الوزير الشّاعر، وهذا الخيال الخصب الذي يفيض بالمعاني فيضاً... وأقوى ما تبدع هذه الشّاعرية، فيما لاحظت حين تتّصل نفس شاعرنا بالله، وبمجال آياته في الكون، وبأسرار البشرية وغوامضها، وصلاتها بما يجاورها من مخلوقات، ونسبتها إلى هذه العوالم المنظورة والمغيّبة".⁽⁴⁸⁾

ويرى الإبراهيميّ بأنّ شعره يختصّ "بوصف سرائر النفوس وانفعالاتها ونشدان الصّداقة الصّادقة والودّ الخالص، ويفيض بالذّاتيّة المستعلية بالله، المترقّعة عن الإسفاف، المتعقّقة عن الشّهوات إذا نافت إلى الكمال، أو وقفت في الطّريق إلى الله، ويسمو في كثير من أغراضه إلى سمة الرّوح بخالقها، وترقيها في مجالي التّقوى والإيمان فيدلكّ حين تقرأه على قرب صاحبه من الله، والاعتزاز بعبوديته له، وقد تبدو في بعض شعره حيرة ولكنّها حيرة المؤمن المسلم وجهه لله، لا حيرة الشّاك المضطرب".⁽⁴⁹⁾

ومع ما لشعر الأميري من حسنات عدّها الإبراهيميّ، فهو يلاحظ عليه، أيضاً، أنّه في حاجة إلى الصّقل واستفتاء أساليب البلّغاء، ويأخذ عليه عدم أناته في النّظم والصّبر على مراجعته.⁽⁵⁰⁾ وهي الملاحظة التي يعيدها الإبراهيميّ، في موضع آخر، فيشيد بمزايا شاعريّة الأميري، حين يقول: "الشّاعرية في شاعرنا الأميري قويّة، حيّة، موهوبة، مشبوبة، جيّاشة، وهي مستندة على حظ من البيان العربي غير قليل، وثروة من اللّغة محيطة بالمعاني التي راض الشّاعر قريحته على النّظم فيها، وتبدو لسلاستها وسهولتها فطرية سليقيّة، لا تكلف فيها ولا عسر، مفصّلة على المعاني، موزّعة على الأغراض، كأنّها لم تخلق إلّا لها! ولكم تمنيت لهذه الشّاعرية القوية لو صاحبها توسّع لغوي، وقراءة متأنية لفحول البلاغة، وإذن، لجا من هذا الشّاعر، نادرة العصر، ولتكشّف عن فحولة تخمل الفحول".⁽⁵¹⁾ وينبّه الإبراهيميّ الشّاعر إلى ما ينبغي فعله وما يجب عمله ليستوي عوده، ويرتفع شعره في سماء الإبداع، وإن كان يعدّ شعره من الأدب الرفيع ومقاطيعه الجميلة من كرائم الشّعْر وأن عليه ألا يزري بهذا الأدب وأن يُنحِف الأدب العربي بتلك العرائس المخدرة.

ويؤكد الإبراهيميّ على أنّ هذا الشّعْر يرتفع ويرتقي إلى مستوى من الإبداع سامق، كلّما اتصل موضوعه بالله وبآياته في الكون، أو "حين تتّصل أو تماس الآلام أو الآمال، فهنا ترى نوعاً غريباً من الإبداع في الوصف، ونوعاً آخر من التّحليق، وتسمع خفقات... تتبعها زفرات... تتبعها أنات... تتبعث منا آهات... يمزجها الشّاعر في مقاطيع صغيرة، من البحور القصيرة، سهلة السبك، سهلة القافية، فتأتي مؤدّية لمعانيها، وكأنّها بين الآهات انقطاع واستراحة..."⁽⁵²⁾

2.3.2 معيار وضوح أثر الدّين أو الفكرة في الإبداع الأدبي

إنّ الدّين حافز قويّ للإبداع، والإبراهيميّ في حكمه لصالح شعر الأميري وجودته حين يتّصل بالمضامين الدّينيّة يعلن حقيقة تنفي تلك المقولة القديمة التي طالما ردّدت، واحتجّ بها في غير حقّ، من

أَنَّ الشَّعْرَ إِذَا دَخَلَ فِي الْخَيْرِ أَوْ ارْتَبَطَ بِالْإِسْلَامِ ضَعُفَ وَلَان...⁽⁵³⁾ ويرى الإبراهيمي أَنَّ "الإيمان صاحبنا الوزير الشاعر، ونقواه، وتربيته الدينية، ومحافظته على الشعائر دخلاً كبيراً في تلوين شاعريته، وإضفاء جلال الدين عليها... وهو في هذا شبيهه بمثله من الشعراء الأتقياء -وقليل ما هم- ومنهم شاعر الجزائر محمد العيد".⁽⁵⁴⁾

ومما يزيد شعر الأميري بهاءً وألقاً أَنَّهُ "لا يتدلَّى إلى المعاني التافهة التي يسفَّ إليها أصحاب النفوس الصَّغيرة... وللشَّعراء في فهم الجمال وفي معانيه، وفي مجاليه، وفي تدوِّقه، مشارب مختلفة، تبتدئ من (الملا الأعلى) وتنتهي إلى (الغرائز السفلى)!"⁽⁵⁵⁾

ويمكن التأكيد على قضيتين مهمتين في قراءة الإبراهيمي لشعر الأميري:

- الأولى تتعلَّق بالموضوعية في النِّقد فلا ينحاز الناقد ولا يجامل ويحكم بما يلزمه في مقروئه الشعري، ولا يحابي ويقول رأيه بجرأة ومنتهى الصراحة.
 - وتتعلَّق الثانية بأنَّ الدين لا يكون سبباً في ضعف الشعر، ولا في لينه، فقد أثبت الأميري عكس ما ترسَّب في الذاكرة من أَنَّ الدين إذا دخل في الشعر يضعف ويلين. فالدين حافز قوي للإبداع وعامل على تلوين الشاعرية وإضفاء الجلال عليها كما بيَّن الإبراهيمي رحمه الله.
- وفي خلاصة هذا المحور، فإنَّ اعتماد معيار الموضوعية والفنية في النِّقد بعيداً عن الذاتية، والتَّعويل على الأعمال الأدبية في استصدار الأحكام النِّقدية، وتمكن الأدباء من حرية التَّجريب والإبداع أمور بالغة الأهمية. وبعد ذلك يأتي النِّقد لينظر في هذا الإبداع، وقد كان الإبراهيمي يعي كل ذلك، بقوله: "ومن حماية حرية الأديب أن نتَّجه بالنِّقد وجهة موضوعية فنية، ونبعد به عن تلك المهارات التي تتأدَّى بها العيون والأسماع والقلوب والعقول، فالنِّقد تابع للإبداع، وليس الإبداع عبداً للنِّقد."⁽⁵⁶⁾
- وكيف يكون النِّقد الذاتي متعسفاً؟ كيف يكون سيفاً مسلطاً على رقاب الأدباء؟ والحقَّ أَنَّ الإبداع مقدَّم على النِّقد الذي يأتي في الرتبة الثانية، ومعايير النِّقد في كلِّ الآداب تستنبط وتستخرج من الإبداع ذاته لتوجَّه كلَّ إبداع يأتي، ولترسم معالم متجدِّدة للأدباء الناشئين القادمين.
- ومن غير المُستَسَاغ أن تَقِفَ معايير النِّقد أسواراً في وجه الأديب المجدِّد المجرب والمتجاوز في فنِّه، فمن "حقِّ الأديب أن تترك له الفرصة الملائمة ليَجرب ويَجرب، فالتَّجربة إنْ أثمرت كانت فتحاً جديداً، وإلاَّ فهي درية وخبرة تصقل الموهبة، وتكشف حقائق الحياة".⁽⁵⁷⁾ كلمات الإبراهيمي كلمات ناقد عليم بالإبداع الأدبي وما ينبغي أن يكون عليه من حرية وتجريب، ومتمرس بالنِّقد، مدرك لما ينبغي أن يكون عليه النِّقد من تسامح وتجاوز.

(3) النِّقْدُ، النَّاقِدُ، وَصِفَاتُهُ مِنْ مَنْظُورٍ إِسْلَامِيٍّ

يتصف الناقد الأدبي بكثير من الصفات، نذكر منها ما يلي:

3.1.1 الإنصاف والصراحة

يترتب، على ما تقدّم ممّا أشار إليه الإبراهيمي، أن يتجنّب الناقد صفة التّعصب والانحياز، وأن يعتدل ويتوسّط في حكمه، وأن يراجع أحكامه النقديّة وينتبه إلى أخطائه، وأن ينصف في التّقييم، ويصّرح بالملاحظات ولا يجمال الأدباء.

وفي هذا الإطار، أشاد الإبراهيمي بجودة شعر شوقي فكراً وفناً موضوعاً وشكلاً، ونوّه معجباً ببراعته وجمال صناعته وصدق إيمانه وقوّة عقيدته، وبيّن في أكثر من موطن أسباب إعجابه الموضوعيّة بالشاعر وشعره، ولم يخسه حقّه الذي يجب له من التّقدير المنصف والثّناء المعتدل. ومع ذلك، لم يغض بصّره عن هذات ليست باليسيرة وهفوات ليست بالقليلة ومآخذ معدّودة وقع فيها الشاعر، وألمّ بها فتخلّلت شعره كما تخلّلت شعر بعض السّابقين، وهي ناتجة عن الإفراط والتّقريط، معاً، ويقول الإبراهيمي بهذا الشّأن: "يؤخذ على شوقي أنّه مع جلالته في الإيمان ومثانة العقيدة يطغى عليه الجبروت الشعري فيقع في هفوات تدخل في باب الإغراق والغلوّ أو في باب التّساهل والاستخفاف، وقد سبقه إلى الوقوع في أمثالها من فحول الشعراء ابن هانئ الأندلسي والمتنبّي والرضي من غير إكثار. ولعمري إنّ بعض ما وقع لشوقي من ذلك يجاوز حدود التّأوّل، لا لأنّ موقع هذه الأشياء التي تساهل فيها شوقي في باب التّوفيقيات، وللتوفيقيات في الإسلام آداب مخصوصة وموارد منصوصة لا يستمع فيها، ولا يشفع فيه العذر والتّأويل".⁽⁵⁸⁾

ويسمّي الإبراهيمي تلك الهفوات بالمبالغات وسببها الاستسلام للجبروت الشعري، وعنفوانه وهيمنته منها، ورد في أبيات ذكر منها قوله:

وجه الكنانة ليس يغضب ربحم أن تجعلوه كوجهه معبودا
ولوا في الدروس وجوهكم وإذا فرغتم واعبدوه هجودا

وقوله:

جعلنا مصر ملة ذي الجلال وآلفنا الصليب على الهلال

وقوله:

مهرجان طوف الهادي به ومشى بين يديه جبريل

وقوله:

وقفي الهودج فينا ساعة نتناوب والروح الأمين

وغير هذا في شعره كثير، وإنها لهنات، نرجو أن تكون في مقابل إحسان شوقي وفي جانب عفو الله هيئات⁽⁵⁹⁾.

وقلما يسلّم الشعراء على تفاوت بينهم من هفوات تحدث لحظات الشّرد الشعريّ والخُضوع لسلطان القول. وعلى الناقد تبيان تلك الهنات للشاعر، ولا ينبغي إيجاد التأويلات والتفسيرات إن كانت تتجاوز حدود التأويل.

3.1.2 الاعتراف والإقرار بمنزلة الشاعر

كان الإبراهيمي ناقداً صريحاً وجريئاً في قراءته لشعر شوقي وملاحظة المآخذ التي لا يحبذ السكوت أمامه، فينصّ على الخطأ، ويُعَاتِب بشدة دون أن يُنسيه ذلك المآخذ الجسيم والعتاب العنيف منزلة شوقي وشاعريته وقدره في الشعر و الأدب العربي، أو يحمله ذلك على نسف كلّ روائع شعره بجرّة قلم، إذ يقول: "ومع تأثر الجزائر الشديد بشعر شوقي وعقيدتها التي لا تتخلخل في شاعريته، ومع اعترافها بأنّه أوّل من هزّ هذا الشرق العربي ببدائعه وآياته فإنّ أدباء الجزائر ما زالوا يعتبرون عليه، بل ما زالوا ينقمون عليه مدحه لفرنسا وافتتانه بحضارتها المزيّفة وتخطيه الأصول التاريخيّة التي لا تعترف لفرنسا ببعض ما ينوّه به شوقي من فضائلها، فهو يقول:

دم الثّوار تعرفه فرنسا	وتعلم أنّه نور وحق
جرى في أرضها، فيه حياة	كمنهل السّماء وفيه رزق
وحرّرت الشعوب على قناها	فكيف على قناها تسترق؟

سامحك الله يا شوقي، أيّ شعب تحرّر على قنا فرنسا، فإن كان بعض ذلك فهو من باب الربا الفاحش؛ تأخذ فيه فرنسا أكثر ممّا تعطي وليس خالصاً لوجه الحرّية والتحرير".⁽⁶⁰⁾

وما يُستنتج من هذا، وهو ما يذهب إليه الإبراهيمي، من وجوب أن يعي الأديب أو الشاعر مسؤوليته، وأن يستشعر مراقبة الله له في القول كما في العمل، فما يلفظ من لفظ إلا وهو رهين به، ومسؤول عنه كسؤاله عن ماله ووقته. ويجسد الإبراهيمي في انتقاداته المختلفة مثال الناقد الإسلامي الذي ينبغي أن يكون جريئاً في النصّح للأديب والتوجيه له والتنبيه على أخطائه، بكل صراحة وجرأة. هكذا نظر الإبراهيمي إلى شعر شوقي من منظار إسلامي، ووزنه بميزان عقديّ، وغرله بغربال فكريّ، ومرّره في مصفاة الدّين، أولاً، لينظر، ثانياً، في الشّكل أو القالب الفنّي والجنس الأدبيّ الذي ينتمي إليه، ويفحص الأسلوب الذي يصوغه. إنّ (الغربة) عمليّة جدّ ضروريّة في الثّقافة والفكر والأدب، وهي عمليّة انتخاب الصّالح والنّافع والمفيد واستبقاؤه، وأخذ وترك، وإثبات ونفي، -وأقول بعبارة أقتبسها من الإبراهيمي- "ستدوب الأجزاء الغريبة الصّالحة في هذا الكلّ الطّبيعي فتصبح جزءاً من ماهيته، وستنفي الأجزاء غير الصّالحة كما ينفي الجسم الصّحيح جراثيم المرض".⁽⁶¹⁾

4) قِرَاءَةُ فِي النُّصُوصِ الْمُؤَطَّرَةِ لِرُؤْيَا الْإِبْرَاهِيمِيِّ لِلأَدَبِ وَوُظُفِيَّتِهِ

تنبّأ في هذا المحور آثار التّصوّر الإسلاميّ في نظرات الإبراهيميّ وآرائه في الأدب ووظيفته وفي الأديب وثقافته، وهو ما نتناوله بإجمال غير مُخلّ.

4.1 وَظِيفَةُ الأَدَبِ فِي نَظَرِ الْإِبْرَاهِيمِيِّ

إنّ العمل على وحدة الأمة غاية من أشرف غايات الإسلام، ومن أجل الأهداف التي يسعى إليها، وقد شرع الإبراهيميّ في الحديث عن وظيفة من أبرز وظائف الأدب قبل أن يومئ إلى ماهيته لخطورة الأدوار التي يقوم بها أو ما يجب أن يقوم به، ليس وحده بل اللّغة معه. فأسمى وظيفة للأدب تلك التي تجعل منه عامل وحدة لا تفرقة، ووصل لا فصل بين أبناء الأمة وبين أجيالها، فهو على حدّ قول الإبراهيميّ "الوشيجة القويّة والثيقة الباقيّة التي لم تنقطع طوال القرون وعبر الأزمان. فهذه هي الأيام تطوي الدّول، وتقرب البعيد، أو تبعد القريب، وتقطع هذا السبب أو ذاك من علاقات الأفراد أو روابط الجماعات، ويبقى اللسان العربيّ والبيان العربيّ والشعر العربيّ رسلاً صادقين وروابط قويّة بين أبناء العروبة كلّهم... نعم، يبقى الأدب العربيّ رباطاً يجمع العرب مهما اختلفوا أو تفرّقوا في ميادين أخرى بطارئ من طوارئ الهمّ، أو لون من ألوان الاختلاف في الهمم..." (62)

ومن هذه الزّاوية، تتحقّق وحدة الأمة بالنسبة إلى الإبراهيميّ من خلال وحدة الأدب العربيّ، بصورة عمليّة، وتستمدّ العروبة شرعيّتها من واقع اللّغة والبيان والأدب، فليس ميدان هذه القضية السّلاح والحرب، وإنّما ميدانها العقل والفكر. (63)

حقّاً، إنّ الأدب بلغته وبيانه الرّباط الذي لم يتأثر بفعل الزّمن ولا المكان ولا الأحداث الطّارئة على امتداد هذه الأزمنة والأمكنة، ويرى الإبراهيميّ أنّ الأدب ينهض بهذا الدّور المهم حين: "يصوّر الخواطر، ويأسو الجراح، ويؤلّف بين الألسنة والقلوب حتّى تتصافح الأيدي، ويعود البناء كما كان أبيعاً لا ينال، قوياً لا يلين. ولربّ خاطرة لكاتب أو همسة لشاعر، أحييت رماً، وبعثت دارساً، وردّت ذاهباً وفجّرت الينابيع في صمّ الصّخور..." (64). وفضلاً عن كونه الأدب خُلاصة التجارب الإنسانية والثّقافة البشريّة خلال الأجيال، فهو رباط لا ينفكّ بين النّاطقين بلغته والعارفين بلسانه. (65)

ويُضيفُ الإبراهيميّ إلى تلك الوظيفة وظيفّة جليّة أخرى ودوراً بارزاً آخر لا يقلّ أهميّة عن الدّور المتقدّم، إنّ دور يتداخل فيه السّياسي بالاجتماعيّ ويمتزج بهما العقديّ والأخلاقيّ، فيقول: "لقد عرفتم في تراثنا العربيّ من جاهليّة النّلد، وإسلاميّة الوضّاء المشرق على عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء ومن بعدهم... عرفتم في كلّ ذلك دور الأدب بألوانه في توجيه الدّولة وبناء المجتمع وتحديد الطّابع المميّز له، وتثبيت المثل التي يحتشد عليها أفراد المجتمع وفصائله..." (66) ويضطلع الأدب، مع ذلك، بمهمّة المحافظة على هويّة الأمة وخصوصيّة المجتمع، وهو خير مرآة لانتماءاتها الثّقافيّة والفكريّة.

إنّ الأدب الذي يتحدّث عنه الإبراهيمي هو الأدب الإسلاميّ البنّاء الهادف الذي رسم طريقه وحدّد معالمه الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الرّاشدون ومن بعدهم. وإضافةً إلى أنّ الأدب يقوم بتصوير البيئة الاجتماعيّة في الفترات التاريخيّة المختلفة، فإنّه أداة بنائيّة لا غنى عنها ووسيلة حيويّة ضروريّة في كيان المجتمعات... منذ العصر الجاهليّ إلى الإسلاميّ إلى الأمويّ إلى العباسيّ... ففي كلّ هذه العصور حمل الأدب صورة المجتمع والطّبيعة التي كان عليها من ضراوة وقوميّة ومدنيّة.⁽⁶⁷⁾

وكان نتيجةً لهذه المنزلة العظيمة للأدب، في الدّولة والمجتمع، الاهتمام الذي لقيه الأدباء في تلك المجتمعات والدّول المتعاقبة. يقول الإبراهيميّ في هذا السياق: "ولقد أدرك هذه الحقيقة السابقون من قوما فحاطوا الأدب والأديب بالحماية والرّعاية ومهدوا للأديب أن يخلص لفنه ويخلص فنّه له... عرفنا ذلك في أيام دمشق عاصمة الأمويين، وبغداد عاصمة الرّشيد والمأمون، والقاهرة عاصمة المعزّ وصلاح الدّين، وفي المغرب على عهد حكوماته العربيّة الخالصة... ورثنا نحن كلّ هذه المآثر التي شهد لها العالمون، ودان لعظمتها الأوائل والأواخر".⁽⁶⁸⁾

4.2 الأدب شخصيّة وفنّه الدّاتيّة وإنسانيّة

يؤكد الإبراهيميّ على "أنّ الأدب العربيّ هو الرّباط الذي لم تغلح السياسات الإقليميّة المفرقة في حلّ عروته، والذي يبقى على الدّهور يجمع العروبة ويوحّد آمالها وآمالها... فإذا أفلح المستعمرون أو أدناهم في تشكيكنا في أصالته وتحطيم خصائصه لم يعد لأدبنا هذه الدّاتيّة القويّة العارمة، وهذه الخاصيّة الجامعة التي يرهبها أعداؤنا، ويعملون على سحقها. فيجب أن يظلّ أدبنا عربيّاً في أصوله وقواعده، لا شريقاً ولا غريباً... يجب أن يظلّ أدبنا عربيّاً يستمد شخصيّة وأهدافه من حاجاتنا الواقعيّة لا المفتعلة ولا المزيفة".⁽⁶⁹⁾

أمّا الأديب فإنّه لا يستحقّ وصفه ولا ينطبق عليه إلّا إذا تجسّدت في شخصيّة شروط يلمح إليها الإبراهيميّ بالقول: "والأديب إنّما يكون أديباً بحقّ حين يكون أمين القلم صادق البيان ينقل إحساسه إلى قارئه في عمق وصدق، فلغة الأدب وحدها هي التّرجمان الأمين لعواطف هذه الشّعوب، واللّسان المبين الذي يعرض خلجاتها، ويفصح عن آمالها وآلامها، والأديب لا يعرف الإقليميّة ولا الحدود، ما دام صادقاً في التّعبير عن حاجات قارئه، نابعاً عن بيئتهم، تتملّل فيه خصائصها الإنسانيّة، ولا تتكسر أمامه عند خطوط الوهم الجغرافي، أو رسوم الحدّ السّياسيّ، إنه كالنّسيم يحمل العبير أينما سار، يصعد في ذروة الجبل وينثال إلى عمق الغور، وينساب على صفحات الوادي... إنّه ينطلق أبداً، ويسعد النّاس بشذاه، ولا يبالون من أيّ روض نشر ولا أيّ سبيل عبر، ما داموا يعرفون في عطره أشداء روضهم ويحسّون في تياره فوران إحساسهم ويرون فيه أنفسهم جادّين أو هازلين، ضاحكين أو واجمين..."⁽⁷⁰⁾

يُجملُ الإبراهيميّ فيما سبق سمات الأدب أو الأديب، والتي تدور في فلك العالميّة والإنسانيّة والشموليّة والانفتاح والحرّيّة، فمن صفات الأديب الأمانة في النّقل والصدق في التّعبير عن ذلك، والبعد

عن التزييف والتخريف والتفاق والمراوغة، والتأيي عن التعصب والتحيز بأي شكل كان، والوعي وتمثل خصائص الإنسانية ونبذ الأوهام الجغرافية والسياسية... والالتزام بآمال وآلام مجتمعه وتطلعات وطموحات أمتة.

4.3 حقوق الأديب المادية والمعنوية وضرورة التكفل بها

يبدو الإبراهيمي أبعد نظراً وأعمق فكراً، في هذا الموضوع، فقد طالب وسبق إلى الطلب بإيفاء الأديب حقوقه وتهئية الظروف المعنوية والمادية المناسبة له للإبداع والإنتاج، وعدم الاعتماد على مجرد المواهب دون توفير الإمكانيات المادية اللازمة، والاعتناء به، وهذا ما يعلن عنه الإبراهيمي بالقول: "وعندي أن المواهب والإمكانيات عنصران لازمان للنجاح، متلازمان في سبيل النصر، ونحن العرب في نهضتنا الحاضرة لا بد لنا من أن نهيئ للمواهب ما ترتفع بأزره من إمكانيات مادية، وتحمي هذه القوى الدافقة في كياننا من الخمود والنضوب."⁽⁷¹⁾ ويدعو في الآن ذاته إلى تجاوز الاعتقاد الشائع بأن الفقر أول خصيصة من خصائص الأديب، والكف عن ترديد وترسيخ الجمل والمعاني التي تصب في هذا الباب (الفقر الملهم والجوع العبقري والبؤس الموحى...) فليس منها فائدة ترجى ولا معنى.⁽⁷²⁾

ويرى الإبراهيمي أن "أول ما يجب أن نحمي من الأديب والأدب هو تلك العواصف التي تطفئ جذوته وتمسخ نوره ورونقه، وتمسه بالعوز والكدية والصعلكة، فلا بد أن نبذل للأديب من رحابة الحياة ويسر العيش ما يجعله معتدل الحس رضي النفس، صادق التعبير، غير ضجر بضيقه وعسره."⁽⁷³⁾ فهذا بعض ما يثير الإعجاب بشخصية الإبراهيمي، ومطالبته بحقوق للأديب تنشئه على الحرية والكرامة والسيادة، واستقلال الرأي غير مكترث لأي سلطان معنوي أو مادي يمكن أن يؤثر في قراراته وتوجهاته، فيزيق الحقائق، ويذيع الأكاذيب وينشر الأباطيل ويشوه سمعة الأدب والأدباء.

لقد اعترف الإبراهيمي بحقوق للأدباء وأقرها لهم، وأن لا يذكرون إلا في موتهم، وقد عاشوا منكورين مغيبين في حياتهم، فيجب أن نتذكر أن لهم أفضل وأمجداً وأن علينا حيالهم واجبات تقالا.⁽⁷⁴⁾ ويوضح الإبراهيمي أن تكريم الأديب ليس كما يتبادر إلى أذهان بعض الناس بتخصيص الإقطاعات وإقامة التكايا له، فهذا أسلوب بائر، وتكريمه في "تقدير الأثر الأدبي في حياته وتقييم الأدب تقييماً عملياً لا نظرياً، ولا عاطفياً فقط، فلن يقات الأديب عاطفة مهما سمت ولا مدحاً مهما اتسع."⁽⁷⁵⁾

4.4 الحرية الفكرية أو حرية الرأي

ينبغي أن تمنح للأديب حريته المادية، من خلال تقدير عمله وتنمين فنّه، وأن لا يُحجَر على حريته الفكرية، فإذا كانت الأولى توفر له الراحة والرخاء ورحابة العيش وتستهدف تفرغه لعمله وفنّه، فإن الحرية الفكرية للأديب هي مداد قلمه الذي بدونها لا ينتج ولا يثمر... ولا بد من حماية الأديب من كل ما يزيغ فنّه، ويدفعه إلى التخفي وراء الرمز والغموض...⁽⁷⁶⁾ ومن مقتضيات الحرية الفكرية للأديب، كما يرى الإبراهيمي، ضمان النقد الموضوعي لعمله، بقوله "من حماية حرية الأديب أن نتجه

بالنقد وجهة موضوعية فنية، ونبعد به عن تلك المهارات التي تتأذى بها العيون والأسماع والقلوب والعقول، فالنقد تابع للإبداع، وليس الإبداع عبداً للنقد.⁽⁷⁷⁾

ومن مقتضيات الحرية التي يتمتع بها الأديب "أن تترك له الفرصة الملائمة ليَجرب ويجرب، فالتجربة إن أثمرت كانت فتحاً جديداً، وإلا فهي دربة وخبرة تصقل الموهبة، وتكشف حقائق الحياة".⁽⁷⁸⁾ ومن مقتضياتها، كذلك، أن يبذل الجهد في حماية شخصية الأديب ومن ثم حفظ خصوصية الأمة التي ينتسب إليها، فمن حق الأديب، كما يعلن الإبراهيمي "أن نحمله من تميع الشخصية وتحلل المقومات، فكل أدب طابعه، ولكل أمة نهجها ومشكلاتها الخاصة وطبيعتها المعينة التي تملئ حلولاً معينة، فلا بد من الرجوع إلى بيئتنا وماضينا وتراثنا ومقومات جنسيتنا وقوميتنا، قبل أن نحاول جديداً".⁽⁷⁹⁾

وبهذا الصدد، تؤكد على ضرورة إفادة الأدباء والقائمين على شؤونهم من الآراء والتوجيهات التي قدمها الإبراهيمي والاستهداء بها في تعرف الأدباء إلى الطريق السوي في الإبداع، فتأتي محاولات الإبداع والتجريب ببنية واقعية تتطلبها ضرورات الحياة، وتستدعيها كذلك ظروف لها أصالة في مجتمعنا ووشائج بعروبتنا وماضينا.⁽⁸⁰⁾

4.5 التجريب في الأدب في نظر الإبراهيمي

ويُنبه الإبراهيمي إلى ضرورة إدراك مفهوم (التجريب) في إطار الخصوصية العقدية والثقافية للأمة، ويحذر أن يكون التجريب تقليداً لأجل التقليد وأن يكون التجديد لأجل التجديد، وبهذا الشأن يقول: "أحب أن أحذر هنا من التقليد للتقليد، ومن التجديد للتجديد، فليس كل واقع صالحاً للبقاء، حتى نقلده ونتمسك به، وليس كل جديد له هدف، أو يحقق فائدة حتى نسعى إليه وننتهافت عليه".⁽⁸¹⁾

وفي ضوء هذه الرؤية تحدد قيمة الاقتباس والاستعارة بمقدار الفائدة المنتظرة والمنفعة المرجوة منهما، فالفائدة أو المنفعة هي المعيار الواجب اعتماده في التعامل مع التقليد والتجديد، ومدى مطابقتها لخصوصية المجتمع والأهداف التي يسعى إليها، ومدى مطابقتها للوقائع والحقائق الثابتة لا الأوهام والحقائق الزائفة.

إنّ الأدب أحد المجالات الخطيرة والمهمة بما فيه من تجريب في الإبداع وإيجابية في التقييم التي تتجلى فيها المحافظة على الخصوصية الاجتماعية. وإن التحلي ب (الإيجابية المبصرة) -كما ينعتها الإبراهيمي- التي تعرف ما لها وما عليها، حقوقاً وواجبات، تعتبر بالحقائق وتنثني عن الأوهام، هي صمام النجاة، مما يمكن أن يؤدي الأمة من سموم الاستعمار الذي يجد وسيلته في الأدب، ويلقي فيه أحسن منفذ له للتسلل إلى مقاتل المجتمع، وقد نبه الإبراهيمي إلى ذلك بالقول: "يحلو لي أن ألمح إلى هدف استعماري خفي، ما زال حتى الآن ينهش في كياناتنا القومي الأدبي، وهو محاولة تميع الشخصية العربية في الأدب بحركات تتسمى بأسماء كثيرة ومدلولها كلها واحد، وهدفها جميعاً التشكيك في مقومات الأدب العربي ومحو خصائصه وهدم بنيانه من القواعد".⁽⁸²⁾

ولخطورة التقليد في الأدب، كان الإبراهيمي يقول مخاطباً الجيل والأجيال التي فتتھا الغرب بقوله: "أنه إن أراد أن يبني العلم والبيان والقوة على أسسها الصحيحة فليتمسها من معادنها في أسلافه ولا يأخذها بالتقليد للغرب والاستعارة من الغرب." (83)

4.6 التَّأصيلُ والانفتاحُ على آداب الآخرين

ولا يفهم من كلام الإبراهيمي الآنف الذكر أي دعوة إلى الانغلاق على الذات والاكتفاء بالتراث العربي والإسلامي، وإنما يبين الإبراهيمي أن أي انطلاقة حقيقية، أو أي نهضة فاعلة ينبغي أن تتخذ لها من التراث العلمي والثقافي العربي والإسلامي الذي أنتجته الأمة في مسيرتها التاريخية الحضارية قاعدة ثابتة أو إطاراً واضحاً أو مرجعاً راسخاً لهذه الانطلاقة ولهذه النهضة المتعددة الجوانب المتكاملة النواحي، وليس بعد ذلك مانع من الانفتاح على تجارب الآخرين من الأفراد والجماعات والأمم والإفادة من خبراتها. فالإسلام لا يرفض ذلك مطلقاً، ولا تجافيه سنن الحياة، وفي التاريخ الإسلامي شواهد كثيرة على ذلك، يقول الإبراهيمي وهو يتحدث عن أثر الأزهر في النهضة المصرية: "لست أنكر تلقيح أدبنا بالآداب الزاكية، ولا تطعيم حكمتنا بالحكم الحية، فلا الإسلام السّمح يأبى لنا ذلك، ولا الحياة الدائبة تستغني عن ذلك، وقديماً فعلنا ذلك، وحديثاً تفعل الأمم ذلك، ولكن قبل الريح يجب المحافظة على رأس المال؛ ولست أنكر على الأزهر أن يجاري الأحياء في الحياة، وأن يلاحم عليها، بل أرى من الواجب عليه أن يزواج بين علوم الدين وبين علوم الدنيا، وأن يهيئ أبناءه ليكونوا عقاباً جوّ، وسباع دوّ، وأن يكونوا أحلاف حرب وأحلاس محارب، وأن يكونوا دعاة أجرياء إلى دينهم الحق وأدبهم الحي، وفضائلهم الروحية وأن يعرفوا أنفسهم، ثم يتعارفوا، ثم يتعرفوا." (84)

ويبدو أن لفظ (أدبنا)، في مفهوم الإبراهيمي، بالإضافة الدالة على الجماعة، يراد به الأدب ذو الخصوصيات الإسلامية والعربية، الأدب الفسيح الواسع الذي لا تحدّه حدود، سواء أكان عربيّ اللسان أو أعجميّه. ويأتي انفتاح الأدب العربي الإسلامي على آداب الأمم والشعوب الأخرى عامل تلقيح وتطعيم له، ونافذة تفتح له جسوراً للتواصل وآفاقاً للتلاقى والانتفاع بتجارب الأمم الأخرى. ويمكن لهذا الانفتاح الأدبي والمعرفي أن يمرّ بمراحل؛ فتكون معرفة النفس أو الأنفس المرحلة الأولى، وهي مرحلة تتسع فيها المعرفة إلى التراث المحلي والقومي والرّصيد الثقافيّ المعرفي المتراكم الموروث عن السلف، ومعرفة ما أنتجته الأمة في أقطارها المتنوعة في هذا الميدان أو ذاك، وفي أجيالها المتعاقبة.

وتتبع هذه المرحلة مرحلة التعارف بين الشعوب وأمم الأرض وبين الثقافات والحضارات والمدنّيات. وتأتي بعد ذلك مرحلة (التعرّف) وهي قمة هذه المراحل حيث تحتلّ الأمة الإسلامية مركز الصدارة الإنسانية في السبق المعرفي والبحث العلمي والاكتشاف والاختراع والإبداع. ولكلّ مرحلة ما يلزمها من زمنٍ ومن أدوات ومن رؤى، ولا شك أن مفاهيم الإبراهيمي مستوحاة من القرآن ومن سنة النبي ومن سنن الوجود.

4.7 حماية إنتاج الأديب

لقد نادى إبراهيمي، منذ زمن مبكر، إلى حماية حقوق الأديب وحماية إنتاجه من استغلال المستغلين وسرقات المنتهين.⁽⁸⁵⁾

ومن حماية حقوق الأديب حمايته من الدُخْلَاء على فنّه الذين يهبطون بالمستوى الرفيع إلى حضيض الابتذال، و"ربما كان هذا هو السبب في ضياع الأديب الحقّ الذي يتمسك بفنّه، بينما يتاجر غيره بالإسفاف وينجح في ظلّ المعايير المختلفة والمقاييس المضطربة، وربما كان ذلك أيضاً سبباً من أسباب ضياع المكانة الاجتماعية للأدباء".⁽⁸⁶⁾

لقد استحقّ الأدب والأديب هذا الاهتمام والتّويه من إبراهيمي لما لهما من دور عظيم، وقد علّل ذلك في هذه الكلمة الجامعة، في قوله: "يجب أن نعلم أنّ خلاصة الثقافة والفكر تتمثّل في الإنتاج الأدبيّ، فلنحم الأديب من نفسه بأن نطالبه بعمل فنّي يصوّر خلاصة ثقافته وتجاربه، ولنفسح له في حياتنا العامّة مكاناً من أماكن الصّدارة أو التّقدّم فهو بهذا جدير، ولنعلم فوق هذا أن الأدب والأدباء عنوان العصر ومرآة الجيل، وعلى لهواتهم يتردّد تاريخ الأمم والشّعوب، ويظل وراءهم خالداً باقياً، فلنحرص على أن يكون لقب (الأديب) عنواناً على ذروة الكمال النّفسيّ والفنّي، ولنرتفع بهذا اللّقب عن أن يتسمّى به من لا يرتفع إلى مستواه..."⁽⁸⁷⁾

وأخيراً، استطاع إبراهيمي أن يُثير جُملة من القضايا الأساسيّة المرتبطة بالأدب مستفيداً من معرفته بالأدب العربيّ، وممارسته له، ومن ثقافته الإسلاميّة مقرّراً ما للأدب من وظيفة في توحيد صفوف الأمّة، وما يميّز به من وضوح أثر العقيدة فيه، ومن قوّة الأدب الدّانيّة وإنسانيته، متناولاً قضايا تتعلّق بحريّة الأديب وبالتّجريب في الأدب والتّأصيل والانفتاح وحماية إنتاج الأدباء. وانطلاقاً من احتفال إبراهيمي وإعجابه بهذا بالشّعراء، مثل أحمد شوقي والأميري ومحمّد العيد آل خليفة، يتكشف مدى عمق رؤيته للأدب الذي لا يمكن بأي حال أن يُجرّد من القيم والأخلاق، وإنما يُعنى بها، بصورة من الصّور، ولا خوف على الإبداع من القيم والأخلاق فبها يتألّق، ف "الأدب إذا جرّد من القيم أصبح عبارات جوفاء لا تحمل مضمونا حقيقيّاً".⁽⁸⁸⁾ ولا ينبغي أن يندفع الأدباء بالاتّجاهات التي قد تنزع من الأدب بعض القيم والأخلاق وتنزل به إلى مستنقع الشّهوات وحضيض الإباحيّات بدعوى الفنّ للفنّ.

(5) خاتمة

إنّ قراءة الشّيخ إبراهيمي لشعر شوقي لهي قراءة محيطيّة بشتى عناصر (التّواصل الأدبيّ)، بدءاً من الأديب (المُرسل) إلى أدبه (الرّسالة) إلى مُتلقيه (المُرسل إليه) والأثر الذي تلقّاه بوصفه قارئاً، والأثر الذي يتركه فيما يُحيط به، وفيما يأتي ويُحتَمَل أن يُنتج من نُصوص، وهو (السياق) بمفهومه الأوسع، الـ (ما قبل) والـ (ما بعد). وتستند قراءة الشّيخ إبراهيمي إلى نظريّة الأدب الإسلاميّ ونقّده وإلى مفاهيمها وأدواتها مُستلهمةً وظيفة النّقد الأدبيّ وغايته من حيث تقويم العمل الأدبيّ من النّاحية الفنّية، وبيان قيمته

المَوْضُوعِيَّة، وقيمته التَّعبيريَّة والشَّعوريَّة. وتسهم قراءة الشَّيخ الإبراهيميَّ في تعزيز الرِّصيد النَّظريِّ والتَّطبيقيِّ للأدب والنَّقد الإسلاميَّين، وتُعِين في استنباط المفاهيم والأدوات الَّتِي تَمَكِّن من اقتراح قِراءاتٍ مُناسِبَةٍ للنَّصوص الأدبيَّة والنَّقديَّة، وترسيخ تقاليد أصيلة في إنتاج النُّصوص والنَّقد والإبداع بصفة عامَّة. كما أنَّ قراءة الإبراهيميَّ لشعر شوقي ومحمَّد العيد آل خليفة والأميريَّ تؤكد على ضرورة اتِّسام الأدب بالتَّقاول والإيجابِيَّة، وهي صفات تتولَّد من شخصيَّة الأديب، وتنعكس في أدبه، وتدل على أنَّ تعاطف النَّاقِد والقارئ له قيمة كبيرة في توجيه الأديب، وتحتِّم ضرورة التَّنقيف والتَّعلُّم في تكوين الأديب والنَّاقِد على السَّواء، وتتادي إلى تجاوز المَوْجُود المَوْزُوثِ إلى الإبداع والتَّجديد، وغيرها من النَّتائج الَّتِي تلتَمَس في مواضعها من القراءة المتمعنة لكتابات الإبراهيمي.

مصادر

- 1- عبد الملك بومنجل: "النثر الفني عند البشير الإبراهيمي"، بيت الحكمة، العلمة، الجزائر، ط: 1، 2009، ص: 84
- 2- المرجع السابق، ص: 34
- 3- محمد طالب الإبراهيمي: "آثار محمد البشير الإبراهيمي"، ج: 4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط: 1، 1997، ص: 67
- 4- المرجع السابق، ص: 68
- 5- المرجع السابق، ص: 170
- 6- رايح بن خوية: "نظرات الإبراهيمي في الأدب والنقد؛ قراءته لشعر أحمد شوقي نموذجاً"، مجلة الآداب واللغات، كلية الآداب واللغات جامعة محمد البشير الإبراهيمي، ع: 4- 2016، ص: 179-202
- 7- عبد الله صالح الوشمي: "جهود أبي الحسن الندوي النقدية في الأدب الإسلامي"، ص: 60، و: رايح بن خوية: مقالة في الأدب الإسلامي، المصطلح والمفهوم، ج: 1، البدر الساطع للطباعة والنشر، 2012، ص: 13، وما بعدها.
- 8- سيد قطب: "في التاريخ فكرة ومنهاج"، ص: 28
- 9- مأمون فريز جرار: "خصائص القصة الإسلامية"، ص: 27
- 10- "الدين في شعر شوقي"، مجلة الشبان المسلمين، عددي مارس/أبريل 1955
- 11- أحمد طالب الإبراهيمي: آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج: 5، ص: 201
- 12- المصدر السابق نفسه، ج: 5، ص: 201
- 13- المصدر نفسه، ج: 5، ص: 202
- 14- المصدر نفسه، ج: 5، ص: 202
- 15- المصدر السابق نفسه، ج: 5، ص: 202
- 16- المصدر نفسه، ج: 5، ص: 203
- 17- المصدر نفسه، ج: 5، ص: 204
- 18- المصدر السابق نفسه، ج: 5، ص: 204
- 19- المصدر السابق نفسه، ج: 5، ص: 205
- 20- المصدر السابق نفسه، ج: 5، ص: 205
- 21- المصدر نفسه، ص: 206
- 22- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

- 23- المصدر السابق نفسه، ص: 206
- 24- المصدر السابق نفسه، ص: 207
- 25- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 26- المصدر نفسه، ج: 5، ص: 209
- 27- المصدر السابق نفسه، ج: 1، ص: 106
- 28- المصدر نفسه، ج: 5، ص: 226
- 29- المصدر السابق نفسه، ج: 5، ص: 227
- 30- المصدر نفسه، ج: 5، ص: 228
- 31- المصدر نفسه، ج: 5، ص: 228
- 32- المصدر السابق نفسه، ج: 5، ص: 228
- 33- المصدر نفسه، ج: 5، ص: 228
- 34- المصدر نفسه، ج: 5، ص: 229
- 35- سيد قطب: "النقد الأدبي أصوله ومناهجه"، دار الشروق، القاهرة، ط: 8، 1424هـ-2003م، ص: 8
- 36- وليد إبراهيم قصاب: "من قضايا الأدب الإسلامي"، دار الفكر، دمشق، ط: 1، 1429هـ-2008م، ص: 26 وما بعدها.
- 37- الآثار، ج: 1، ص: 228
- 38- الآثار، ج: 1، ص: 228
- 39- الآثار، ج: 1، ص: 228
- 40- الآثار، ج: 1، ص: 229
- 41- الآثار، ج: 4، ص: 159
- 42- الآثار، ج: 4، ص: 159
- 43- الآثار، ج: 4، ص: 159
- 44- الآثار، ج: 4، ص: 160
- 45- الآثار، ج: 4، ص: 160
- 46- الآثار، ج: 4، ص: 83
- 47- الآثار، ج: 4، ص: 83
- 48- الآثار، ج: 4، ص: 85
- 49- الآثار، ج: 4، ص: 85
- 50- الآثار، ج: 4، ص: 83
- 51- الآثار، ج: 4، ص: 86
- 52- الآثار، ج: 4، ص: 85
- 53- ابن قتيبة: "الشعر والشعراء"، ص: 104
- 54- الآثار، ج: 4، ص: 85
- 55- الآثار، ج: 4، ص: 86
- 56- الآثار، ج: 5، ص: 213
- 57- الآثار، ج: 5، ص: 213
- 58- المصدر السابق نفسه، ص: 207
- 59- المصدر السابق نفسه، ص: 208

- 60- المصدر نفسه، ص: 229
- 61- المصدر نفسه، ج: 3، ص: 502
- 62- الآثار، ج: 5، ص: 210
- 63- الآثار، ج: 5، ص: 211
- 64- الآثار، ج: 5، ص: 210
- 65- الآثار، ج: 5، ص: 211
- 66- الآثار، ج: 5، ص: 211
- 67- الآثار، ج: 5، ص: 212
- 68- الآثار، ج: 5، ص: 212
- 69- الآثار، ج: 5، ص: 213
- 70- الآثار، ج: 5، ص: 211
- 71- الآثار، ج: 5، ص: 211
- 72- الآثار، ج: 5، ص: 212
- 73- الآثار، ج: 5، ص: 212
- 74- الآثار، ج: 2، ص: 212
- 75- الآثار، ج: 2، ص: 212
- 76- الآثار، ج: 2، ص: 212
- 77- الآثار، ج: 5، ص: 213
- 78- الآثار، ج: 5، ص: 213
- 79- الآثار، ج: 5، ص: 213
- 80- الآثار، ج: 5، ص: 213
- 81- الآثار، ج: 5، ص: 213
- 82- الآثار، ج: 5، ص: 213
- 83- الآثار، ج: 5، ص: 227
- 84- الآثار، ج: 5، ص: 502
- 85- الآثار، ج: 5، ص: 213
- 86- الآثار، ج: 5، ص: 213
- 87- الآثار، ج: 5، ص: 214
- 88- سيد قطب: "في التاريخ فكرة ومنهاج"، ص: 11
- الوشمي، عبد الله صالح: "جهود أبي الحسن الندوي النقدية في الأدب الإسلامي"، مكتبة الرشد، الرياض، ط: 1، 1426هـ-2005م.
- بن خوية، رابح: "مقالة في الأدب الإسلامي، المصطلح والمفهوم" ج: 1، البدر الساطع للطباعة والنشر، ط: 1، 2012.
- بومنجل، عبد الملك: "النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، بيت الحكمة، العلمة، الجزائر، ط: 1، 2009.
- جرار، مأمون فريز: "خصائص القصّة الإسلاميّة" دار المنارة، للنشر والتوزيع، جدّة، ط: 1، 1408هـ-1988م.
- قطب، سيد: "في التّاريخ فكرة ومنهاج"، دار الشّروق، القاهرة، ط: 10، 1413هـ.
- ناصر، محمد: "الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية 1925-1975"، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط: 02، 2006.